

## الفصل الثاني

- الانتماء .
- القومية .
- نشأة الدولة ..... قوتها .....



## الإسلام ثم الوطن والوطنية

من المعلوم أن الوطنية هي افتخار واعتزاز المسلم بالدين الإسلامي الحنيف ثم حب الوطن ، والشعور بارتباط نحوه . فالوطن هو قطعة من الأرض ، وإن الوطنية هو ارتباط الفرد بهذه القطعة من الأرض التي تعرف باسم الوطن . والإنسان يحب وطنه ، فيشعر نحوه بتعلق قلبي عميق ، فيفرح لسعادته ، ويتفجع عند نكبته ، ويسعى لخدمته . حتى أنه لا يتأخر عن التضحية في سبيل رفع راية الإسلام ثم وطنه ، إذا اقتضى الحال بأعز ما يملك حتى لو كانت حياته لأن منبع الوطنية وبذرتها الأولى لدى المسلمين كلمة : ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) ثم حب الوطن .

إن منبع الوطنية اعتزاز المسلم بدينه الذي يضمن له سعادة الدارين « الدنيا والآخرة » والتمسك بتعاليمه ، والافتداء بالسلف الصالح من أمته . ثم حب الوطن ذلك لأن الإنسان يشعر بتعلق عاطفي وارتباط بالمحل الذي ولد ونشأ وترعرع فيه . كما يشعر بتعلق نحو أهل ذلك المحل ونحو جميع الناس الذين عايشهم وعاشرهم وأفهم في صغره وصباه . إن هذه الصلة تظهر نفسها حينما يغترب المرء عن مسقط رأسه ومسرح صباه . فالإنسان يرتبط بموطنه وأهله بروابط معنوية كثيرة ومتنوعة . فإن كل جزء من أجزاء حياته ، يتعلق بزاوية من زوايا بيته وبلدته . ولهذا نجد أن البلد التي تكون مسقط رأس الإنسان ومرباه تشغل مكانة خاصة في نفسه ، بمنظرها وعاداتها ولهجاتها .

إن حب الوطن المسلم يشبه حب الموطن ، وحب الأمة المسلمة يماثل حب الأهل ، وحب الوطن إنما يتولد مع توسع دائرة حب الموطن ، كما أن حب الأمة المسلمة إنما يتولد من توسع نطاق حب الأهل . فإن الإنسان ينظر إلى موطنه كجزء من الوطن ، كما ينظر إلى أهله وأهل بلدته كفرع من المواطنين . ويحب وطنه ومواطنيه ، كما يحب بلدته وأهل بيته ، ويفتخر بأتمته المسلمة ووطنه ، كما يفخر ببلدته وبأهله وبذويه .

الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، وملتقى إخوانه وأحبابه في الله . وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه ، ورباه نسيمه ، قال أبو عمر بن العلاء<sup>(١)</sup> : ( مما يدل على حرية الرجل وكرم غريزته حنيفه أي وطنه ، وتشوقه إلى مقدم إخوانه ، وبكاؤه على ما مضى من زمانه . والكريم يحن إلى أحبائه كما يحن الأسد إلى غابه ، ويشتاق اللبيب إلى وطنه كما يشتاق النجيب إلى عطنه ، فلا يؤثر الحر على بلده بلداً<sup>(٢)</sup> ، ولا يصير عنه أبداً ) .

قال الشاعر :

وأول أرض مس جلدي ترابها      بلاد بها نيطت على تمائمي

وقال آخر :

بلد صحبت بها الشبيبة والصبا      ولبست ثوب العيش وهو جديد

(١) أستاذ الأصمعي ، عد إماماً للغة والنحو وقراءة القرآن وإليه تنسب إحدى القراءات السبع ، كما كان راوية للغة والشعر عن الأعراب .

(٢) تعليق : إلا إن فسدت فإن المسلم قد يهاجر من بلده إذا فسدت إلى البلاد الصالحة كما فعل النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم أجمعين عملاً بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ .

فإذا تمثل في الضمير رأيتَه      وعليه أثواب الشباب تميد

وكانوا يتشوقون إلى أوطانهم ، ولا يفهمون العلة في ذلك ، حتى  
أوضحها ابن الرومي<sup>(١)</sup> في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على  
رجل من التجار ، أجبره على بيع داره فقال :

ولي وطن آليت أن لا أبيعَه      وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا  
عمرت به شرخ الشباب ونعمة      بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكما  
وحبب أوطان الرجال إليهم      مآرب قضاها الشباب هنالكا  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم      عهد الصبا فحنوا لذلك  
فقد الفتته النفس حتى كأنه      لها جسد أن بأن عودر هالكا

وقال من تحير في الحل والارتحال :

وبقيت بين عزيمتين كلاهما      أمضي وأنفذ من شاة سنان  
هم يشوقني إلى طلب العلى      وهوى يشوقني إلى الأوطان

وقد جرت العادة أن البعيد عن الوطن . الذي قضى فيه جزءًا من  
شبابه ، يتشوق إليه ، سواء كان من أهل البدو أو من أهل الحضر . من كل  
من بعد منهم عن بلده ، وطال مقامهم بغيره .

وقد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائماً متحدون  
في اللسان . والإسلام وضع الشريعة التي تنظم علاقتهم بين بعضهم البعض ،  
ولتنظيم علاقة الفرد مع ربه . فإذا بهذه الشريعة قوية أمتهم ونصرهم الله على  
أعدائهم ، وأدوا الرسالة المكلفون بها .

---

(١) ابن الرومي ، شاعر مشهور تميز بالمشائم والتطير ، وشعره جيد في رفته وعذوبته .

ثم إن ابن الوطن المتأصل به ، أو المنتجع إليه ، الذي توطن به واتخذ وطناً ينسب إليه ، تارة إلى اسمه : « سعودي » أو إلى الوطن فيقال : « وطني » ، ومعنى ذلك أنه يتمتع بحق بلده . فانقياده لتعاليم الدين الإسلامي ولأصول بلده يستلزم ضمناً ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية ، والتميز بمزاياها ، فهو لدينه ووطنه بمنزلة أحد أعضاء البدن ، وهذه أعظم المزايا .

فالوطني المسلم المخلص في حب الوطن يفدي دينه وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر . فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائماً متوجهة في حق دينهم ووطنهم إلى الفضيلة والشرف والتمسك بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم وإخوانهم ودينهم ، فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح . كما أن الوطن نفسه الذي يطبق تعاليم الإسلام يحمي عن ابنه جميع ما يضره ، لما فيه من هذه الصفات . فحب الأوطان وجلب المصالح العامة للإخوان من الصفات الجميلة التي تتمكن من كل واحد منهم في جميع أوقاته مدة حياته . مما أسعد الإنسان الذي يميل بطبعه لإبعاد الشر عن الإسلام ووطنه ولو بأضرار نفسه .

فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب أن يؤدي الحقوق التي للوطن عليه . فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق دينه ووطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها عليهما .

## أعداء الدين والوطن والوطنية

الإسلام والوطنية هي من أهم وأقوى للعقيدة وللنزعات الاجتماعية المتأصلة في النفوس المؤمنة . ومع هذا فإنها لا تسلم من أعداء وخصوم تسعى إلى كسر قوتها وتأثيرها . وأنه لا يقصد بقول « أعداء وخصوم » لأشخاص بل المقصود « الميول والنزعات » .

إن أهم وأعم الميول النفسية التي تعارض الدين والانتماء للوطن « الوطنية » وتعاديها هي : « الأنانية » لأنها توجه النفوس نحو المصالح والملذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح والملذات على كل شيء . على حين أن التمسك بتعاليم الإسلام والانتماء للوطن « الوطنية » على عكس ذلك تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » في سبيل رفع راية الإسلام والتمسك بتعاليمه والانتماء للوطن . إنها تطلب من كل شخص أن يحب دينه ووطنه ، ويخدم أمته بكل ما أوتي من قوة ، وأن يضحي بالشيء الكثير من راحته وهنايته في هذا السبيل حتى لو تطلب منه أن يوصل هذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم في سبيل دينه ووطنه .

إن الأنانية تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعي الدين والوطن والانتماء إليهما ، والتي لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن نتغلب على الأنانية المعادية لها . والتي تعادي جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية على اختلاف أنواعها .

غير أن هناك بعض النزعات التي تعادي الانتماء للدين وللوطن ، ومنشأ هذه النزعات المعادية تتلخص في : « الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية » . والتي تعتبر أن الانتماء للدين وللوطن « الوطنية » من النزعات البالية التي يجب نبذها والتخلص منها .

يشير د/محمد الحسان في كتابه « المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية » من أن فكرة المواطنة في المذهب الاشتراكي تقوم على إثارة مجموعة من الانتقادات للمذهب الفردي . وذلك أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت الثورة الصناعية في النظم الرأسمالية أدت إلى حفز مجموعة من المفكرين إلى مناقشة فكرة المواطنة من خلال صراع القوى داخل المجتمع . ففي ظل الرأسمالية التي تتضارب فيها المصالح الخاصة لرجال الأعمال مع المصالح الخاصة للعمال ، جاء التساؤل : هل يمكن القول أن تلك المصالح المتضاربة يمكن أن توصل لتحقيق الصالح العام للمجتمع ، وهل تركيز الثروات في يد فئة قليلة من المواطنين يوجهونها توجيهًا لا أكثرا فيه بمصالح الأغلبية من المجتمع تطبيقًا لشعار الحرية يمكن أن يحقق للمجتمع العدالة الاجتماعية .

وعلى أساس هذه الانتقادات للمذهب الفردي ، بدأ المذهب الاشتراكي من الأفكار التي طرحها كل من « شارل فرانسوا فورييه ، وروبرت أوين » والتي عنيا فيها بالبحث عن تصور لمجتمع جديد يحقق منفعة الغالبية العظمى من الناس .



وقد ظلت هذه الأفكار تتطور حتى جاء «كارل ماركس» الذي يعتبر المنظر الحقيقي للمذهب الاشتراكي ، الذي عرف فيما بعد بالاشتراكية العالمية أو مذهب الشيوعية الماركسية . وبني آراءه على فكرة مؤداها أن مجرى التطور التاريخي يتكيف بصورة حتمية بفعل القوى الاقتصادية ، أكثر مما يتكيف بآراء الناس فيما يجب أن يحدث . وكما جاء في نظريته ، يعتمد النظام الاشتراكي على : القضاء على كافة مظاهر الملكية الفردية ، ووضع كافة مصادر الإنتاجية تحت يد الدولة وأشرافها على الإنتاج ، وتحديد دخول الأفراد ، وإلحاق كل أفراد المجتمع بخدمة الدولة .

والواقع أن النظام الاشتراكي كما رسمه «ماركس» يتضمن العديد من المغالطات . كما أن التجربة العلمية أثبتت أنه أكثر فسادا واستبدادا من النظام الرأسمالي ويمكن التدليل على ذلك بالآتي :

١- كان «ماركس» يعتقد أن الثورة الاشتراكية ستتحول يوما إلى ثورة عالمية ، تنمحي فيها الخصائص القومية . وقد أثبتت الأحداث مدى خيبة هذا الظن .

٢- كان يعتقد أن القضاء على الملكية الفردية ، وسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج كفيل بمحو الطبقة . وقد دلت التجارب على أن هذا الاعتقاد لا يعد أن يكون نظريا ، فقد اختفت الطبقات الرأسمالية وحلت محلها طبقة أخطر من سابقتها ، وهم الحكام أعضاء الحزب الشيوعي .

٣- كان يعتقد أن النظام الاشتراكي سوف يكفل للشعب حرية الفكر والرأي والتعبير ، وهذه الحريات الأساسية التي تدخل فيها حرية العقيدة ، لم يكن لها أي وجود .

٤- الادعاء بأن الدين أفيون الشعوب ، ومحاولته إحلال عقيدة الكفاح في نفوس العمال بدلاً من الإيمان بالله . ولسنا في حاجة للتدليل على افتراء هذه المغالطة وتجنّيها على المقدسات الإنسانية .

وبرغم الازدهار الوقتي الذي لقيه هذا المذهب ، فقد لقي في النهاية الطبيعية التي يمكن أن يلقاها أي مذهب بهذا القدر من الفساد الفكري ، ويكاد يكون قد أجتث تماماً من العالم فكرياً وتطبيقاً<sup>(١)</sup> .

منذ قيام المجتمعات الإنسانية على وجه الأرض والعالم مبتلى بدعوات هدامة ومنها الدعوة الاشتراكية والإلحاد والعلمنة وهي دعوات باطنية . والباطنية هي أم الخبائث التي بسبب مكرها تصدعت الأمم والشعوب ، فقد ولدت الباطنية في نفس مخلوق امتلأ قلبه بالحق على الإنسانية والنقمة على الفضائل والأخلاق . وبنى مذهبه على نكران الغيب والإيمان بالمادة ، وهدم الفضائل الإنسانية كلها ، وإياحة الحرمات جميعها . وزعمت أن الرسل ادعوا النبوة طمعاً في حكم العامة ورغبة في السلطان . وأن الأديان ما هي إلا صدى الحاجة ووليد الضرورة وأنكرت كل قيد من قيود العقيدة والخلق . وسمت الفوضى حرية ، وجعلت الخلاعة والمجون والفسق والفجور والإباحية

---

(١) المواطننة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية ، د/محمد بن إبراهيم الحسان ، جـ ١

شريعة متبعة . وجعلت كل ممنوع مباحًا وكل حرام حلالاً ، وكل حريز مشاعاً ، وفصمت عرى الزوجية ، وقضت على عاطفة الأمومة والأبوة .

إن الاشتراكية المتفرقة عن العلمانية غريبة من الأديان السماوية ، غريبة عن شريعة الإسلام ومبادئها السمحة وعن أحكامه وتعاليمه ، والتاريخ الإسلامي على مر العصور والأزمان لم يعرف العقيدة الاشتراكية . ويعتقد المؤرخون أن النزعة الشيوعية التي سماها « ماركس » الاشتراكية العالمية تعود أصولها إلى أغوار الماضي البعيد . وحين ظهرت الفرق الباطنية في القرن الهجري الثالث ظهرت هذه النزعة الاشتراكية عند معظم هذه الفرق ، واشتملت على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والأمور الإلحادية . إن الإلحاد من المبادئ التي تقوم عليها الاشتراكية ، فالاشتراكيون يرفضون وجود الدين كما يحاربون العاطفة الدينية<sup>(١)</sup> .

إن العلمانية تعني الفصل بين السياسة والدين ، وإنها نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صور من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية وبالأخص في التنظيم العام . وهي التي تدفع المفكرين للتفتيش عن الحلول العلمية للخلاص منها لعزل قضايا الدين عن السياسة ومشكلاتها . وأن لا يكون الإسلام دين الدولة ، أو الشريعة الإسلامية مصدرًا أساسيًا من مصادر التشريع ، وأن يضمن حياد الدولة تجاه الأديان . وهناك فيلسوف علماني للأسف أنه مسلم يقول : ( إن الدين كما يدخل في صميم حياتنا وكما يؤثر في تكويننا الفكري والنفسي يتعارض مع العلم ومع المعرفة العلمية قلبًا وقالبًا ،

---

(١) الإسلام والحضارة ، مطبع النون ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

روحًا ونصًا ، العلم والعصرية يعنيان العلمانية وفصل الدين عن الدولة ) .  
وفيلسوف آخر علماني للأسف أنه مسلم يقول : ( إننا نفضل الحرب ضد  
الدول العربية الرجعية على الحرب ضد إسرائيل لأن العدو هو الدين  
الإسلامي وليست إسرائيل ) .

إن جميع الفئات المضللة معادية سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة  
لأنها في عملها ومبادئها المشبوهة تعمل على تمزيق الشعوب الإسلامية وبث  
الفتنة صراحة بين الأمة الإسلامية بهدف سياسي خسيس للنيل من العقيدة  
السماوية التي أنزلت على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء ﷺ . إن الحقيقة  
التاريخية التي لا تقبل الإنكار أو الشك أن محمدًا ﷺ بعد تشريفه بالنبوة لم  
يقصر عمله على تبليغ القرآن من عند الله وكفى ، بل كان يود حركة عامة  
شاملة نتج عنها قيام مجتمع مسلم .

لذلك أن العلمانية والاشتراكية في الحقيقة هي أسوأ شكل من أشكال  
الظلم الاجتماعي . فأي عاقل هذا الذي يرى العدالة الاجتماعية في قيام  
شخص أو بضعة أشخاص تأليف فلسفة اجتماعية وفرضها بالقوة على سكان  
دولة بأكملها . إن ما جاء في القرآن الكريم لو طبق فسوف تتحقق عدالة  
اجتماعية كاملة ليس بعدها عدالة ، ولو تم تنفيذها فلن يستطيع أحد إيقاع  
المسلمين في خدعة استيراد « الاشتراكية والعلمانية » من الخارج والزعم بأنها  
عين الإسلام<sup>(١)</sup> .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٢ وص ١٥٧ .

لقد ذكر الأستاذ فهد العريفي من أن الوطنية الإسلامية عمل وليست قولاً يتردد في المجالس وعلى أصوات الطبول . الوطنية الإسلامية تقان في حب الوطن الإسلامي ، وبذل النفوس رخيصة في سبيل صيانتة وحمايته والدفاع عنه . الوطنية عدالة بين أهله ، لا تطفيف كيل ولا وزن . الوطنية أمانة في عنق وقلب وضمير كل مواطن والتزام صادق .

لمصلحة الجميع الوطنية شرف يحافظ به كل مواطن على ما أوتمن عليه من مال عام ومال خاص ، دون أن يوهم النفس الأمانة بالسوء بأن مال الدولة مال مشاع يحق له أن يستغله إذا كان أداة من أدوات الاستخدام أو مالا منقولاً وغير منقول فيأكله بكل شذقيه .

هذه الدعوات ليست جديدة فقد أطلقها ذوو النبل والشرف من كتابنا وأدبائنا وليست وليدة على أسماعنا. لكن القلة منا يصاب بالصمم عند سماعها، والبعض الآخر السيئ منا يصفها بالمثالية التي يتبعها الهائمون والحالمون الذين يوهمون الناس إنهم نزهاء ، ويعيدون عن دروب « الدنيا » ومصادر الضرر ، والله أعلم بما تخفي النفوس . الوطنية وتشمل ترشيد صرف الماء والكهرباء وصيانة الأرض والنبات والهواء من العبث والضرر . والوطنية هي التعاون لخير الجميع ودفع الضرر عن الجميع ، وهي تكاتف وتماسك وتعاون على البر والتقوى والخير والمحبة والاستقرار . الوطنية هي نبذ الفرقة والشائعات الضارة ، وتوفير أجواء الوئام بين الأخ وأخيه ، والجار وجاره ، والمواطن مع مواطنيه .

السارق عدو نفسه وعدو الوطن ، والظالم عدو نفسه وعدو الوطن ،  
والمحتال في زمرة الأعداء والمحتالين ، والمنافق عدو نفسه وعدو الوطن ،  
والدجال عدو نفسه وعدو الوطن ، والذين يقبلون الحق إلى باطل والباطل حقاً  
هم أعداء للوطن والأمة .

الوطنية ليست أحاديث تروى ولا قصصاً تدون ، وإنما هي أفعال  
ومواقف . في العهود الحديثة بات الحديث عنها ضرباً من الخيال ، ونوعاً من  
الكلام الممجوج عند بعض من اختطوا طريقهم ، ونهجوا منهجاً آخر لا يتفق  
مع متطلبات الوطن ومستلزمات الوطنية . وبات هذا البعض يرى أن الحكمة  
والوعي والفهم القدرة على الامتلاك ، وأن « العاجز من لا يستبد » ، والقاصر  
من يعجز عن الحصول على ما يريد بالطرق الملتوية ، والواعي من « يلعب  
بالبليضة والحجر » دون أن تتكسر .

أمّا من يتعفف عن مال غيره ، ويبتعد عن أعراض الناس ، ويتحاشى  
الغش ، ويبتعد عن الكذب والنفاق والحيلة ومواطيء الزلل ومواقع الخطل  
فهذا في نظرهم ضعيف مسكين يستحق العطف ويستحق الصدقة . فسبحان  
مقلب القلوب والأبصار ومنه الهداية نستمدّها وننشدها<sup>(١)</sup> .

---

(١) حدود المحبة ، فهد العريفي ، ص ١٥ مجلة الإمامة العدد ١٥٦٦ ، السبت ١٨ ربيع الآخر  
١٤٢٠هـ .

## تمدن الوطن

لا شك أن رسالة الرسل بالشرائع هي أصل التمدن الحقيقي الذي يعتد به ويلتفت إليه . وإن الذي جاء به الإسلام من الأصول والأحكام هو الذي مدن بلاد الدنيا على الإطلاق ، وانبعثت أنوار الهدى في سائر الآفاق .

إن أصول الفقه هو استخراج الأحكام الفقهية ودلالاتها التفصيلية . ونستطيع أن نقول أن القوانين الوضعية الحديثة استفادت في الكثير من قواعدها من كلام الأصول . وأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول باقي الأمم المتمدنة وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم .

فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية ، وهي عبارة عن قواعد عقلية ، تحسناً وتقبيحاً ، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية . وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق والأحكام المدنية ، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية . وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والزود عنه وحمايته ، مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة ، يسمونه محبة الوطن . على أنه عندنا معشر الإسلام حماية الدين مجمع الأركان . فالوطن هو جامعة الدين والوطنية فحمايته واجبة على بنيهِ ، وحب الوطن : (( شعبة من شعب الإيمان ))<sup>(١)</sup> .

---

(١) حديث ضعيف ، إلا أن ما اشتمل عليه كلام جميل .

وفوائد التمدن كثيرة ، وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية .  
ثم إن من أسباب التمدن في الدنيا : التمسك بتعاليم الدين الحنيف ثم ممارسة  
العلوم والمعارف . ومما أعان على سعة دائرة التمدن حرية الرأي والتعبير  
للعلماء وأصحاب المعارف في تدوين الكتب الشرعية والحكمية والأدبية  
والسياسية . بشرط عدم ما يوجب الاختلال في الحكومة بسلوك سبيل الوسط  
بغير تقريط ولا شطط . ومن أعظم معين على التمدن توفر وسائل  
المواصلات على اختلاف أنواعها وكذا السياحة فإنها عادت على جميع ممالك  
الدنيا بالثروة والغنى . وكانت السياحة في الأحقاب السالفة لعرب الإسلام  
لاستكشاف البلدان وإدخال أهلها في دين خير الأنام ، فاستكشفوا من البرور  
والبحور ما لا يحصى ، ومدنوا من أهلها ما لا يستقصى .

وفي الحرية العمومية التسوية بين المواطنين ، فالحرية من حيث هي  
رخصة العمل المباح ، من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور .  
ويتصف كل فرد من أفراد الوطن بأنه حر ، يباح له أن ينتقل من دار إلى دار  
ومن جهة إلى جهة ، بدون مضايقة مضايق ولا إكراه مكره . وأن يتصرف  
كما يشاء في نفسه ووقته وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدود  
بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . وأن لا يضيق عليه  
في التصرف في ماله كما يشاء إلا بأحكام الشرع الإسلامي ، وإن لا يكتف  
رأيه في شيء ، بشرط أن لا تخل ما يقوله أو يكتبه بنظام دولته . وتنقسم  
الحرية إلى خمسة أقسام :



## ١- الحرية الطبيعية :

هي التي خلقت مع الإنسان ، وانطبع عليها ، فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها بدون أن يعد دافعها ظالماً . فالأكل والشرب والمشى مما يشترك فيه جميع الإخوان ولا يستغنون عنه ، مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه . فلا يجوز مثلاً : التخمة ، ولا أكل السموم ، ولا أكل طعام الغير بدون إذنه .

## ٢- الحرية السلوكية :

التي هي حسن السلوك ومكارم الأخلاق التي يدعو إليها ديننا الحنيف ، هي الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الوطن . المستنتج من حكم العقل ، بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليه نفسه في سلوكه في نفسه وحسن أخلاقه في معاملة غيره .

## ٣- الحرية الدينية :

بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين الإسلامي وتعاليمه السمحة .

## ٤- الحرية المدنية :

هي حقوق المواطنين الموجودين في وطنهم بعضهم على بعض ، وأن كل فرد من أفراد الوطن ضمن للباقيين أن يساعدهم قدر المستطاع بما لا يخالف شريعة الإسلام وتعاليمه ، وبشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام والتعليمات المتبعة .

## ٥- الحرية السياسية :

هي تأمين الدولة لكل واحد من مواطنيها على أملاكه الشرعية المرعية ، وإجراء حريته الطبيعية . فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية . فكان الحكومة بهذا ضمنت للإنسان أن يسعد فيها مادام مجتنبًا لأضرار إخوانه متبعًا لشرعه الإسلامي .

فالحرية بهذه المعنى : هي الوسيلة العظمى في إسعاد المواطنين ، في حبهم لأوطانهم . وبالجمله حرية المواطنين منحصرة في كونهم لهم الحق في أن يفعلوا المأذون شرعًا ، وأن لا يكرهوا على فعل المحظور . ومتى كانت حرية المواطنين مصحوبة بعدل الملوك ، المتبعين للحق ، الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة . حتى تستقيم أمور الدولة .

وحيث أن الحرية منطبعة في قلب الإنسان من أصل الفطرة ، واقتضت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذلك ، وكرامته على جميع من عداه ، فيجب أن يصرف حريته لما ينفع وطنه وإخوانه ودولته . فإذا كان الإنسان يكلف بنفع وطنه فلا يعد تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء ، من التعدي على حقوقه ، فإن هذا من واجباته لدينه ثم وطنه . حيث إن العدو الذي يعتدي بالإغارة على حدود الوطن يجب على أهلها قتاله وصدده عنها ، وما ذاك في الحقيقة إلا لحماية دينه وعرضه .

وأعظم حرية في المملكة المتمدنة حرية الزراعة والصناعة والتجارة خصوصًا بعد استكمال الأهلية فيها . وذلك بعد تقديم التربية لأن تهذيب

المواطنين وتحسين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف في العلميات المتسعة . قال بعض الحكماء : ( إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره ) . فإن العقول البشرية المسلمة متى بلغت مبلغاً في فهم أمور دينها وأمورها المعاشية اتسعت في المعاملات ، وتثبتت باختراع ما يعين على المنافع لوطنها .

### المساواة :

وأما التسوية بين المواطنين ، فهي صفة طبيعية في الإنسان ، تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه ، وهي جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية . وذلك لأن جميع الناس مشتركون في ذواتهم وصفاتهم ، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس ، وكل منهم محتاج إلى المعاش . فبهذا كانوا جمعياً في مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد في استعمال المواد التي تصون حياتهم ، فهم مستوون في ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض في ميزان المعيشة . ولكن هذا التساوي بينهم أمراً نسبياً لا حقيقة ، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أولاً ، حيث منحت البعض أوصافاً جليلة لم تمنحها للبعض الآخر .

فبهذا تباينوا في الصفات المعنوية ، بل وفي الصفات الطبيعية ، كقوة البدن وضعفه . ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الرزق فقد جعلهم في الأحكام مستويين . كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام . فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم في الأحكام بأن يكونوا فيها على حد سواء . فحيث اشتركوا واستووا في الصفات

الطبيعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية في الأحكام الوضعية . فمن حيث ثبت أنهم مستوون في الحقوق أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعاً في خطر عام وجب على سائرهم أن يتعاونوا في إزالة هذا الخطر ، لما في إزالته من منفعتهم الدينية . فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية ، ويرجعوا إلى صفة التسوية ، وينسوا كل مزية . فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند إنطواء راية الحرب . وينضم إلى ذلك صفة ثالثة : هي المحافظة على بقاء الهدوء والراحة العامة في وطنهم ، وحسم عرق الفتنة .

فالتسوية في الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعاً من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعاً . فكل إنسان يتصرف في أملاكه وحقوقه تصرفاً كتصرف الآخرين أياماً كانت في المملكة صفته ، شرقاً أو ضعة ، فهو مساوي للجميع في تصرفاتهم . ومن البديهي أن استواء الإنسان في حقوقه مع غيره يستلزم استواءه مع ذلك الغير في الواجبات التي تجب على الناس بعضهم على بعض ، لأن التسوية في الحقوق ملازمة للتسوية في الواجبات . فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفي ما هو له فعليه أن يؤدي ما عليه .

### العدل :

فمن أدى واجباته واستوفي حقه من غيره ، وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل . والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة في أقواله وأفعاله ، وأن ينتصف لنفسه ولغيره ، فأكثر الفضائل متفرع منه ، مثل : الشفقة ،

والمروءة ، والتقوى ، ومحبة الوطن ، وخلوص القلب ، وصفاء الباطن ،  
والكرم ، وتهذيب الأخلاق ، والتواضع ، وما ماثل ذلك ، فهذه كلها نتائج  
العدل . ثم إن الحديث الشريف عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :  
(( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ))<sup>(١)</sup> . يتضمن الدرجة العليا  
في العدل<sup>(٢)</sup> .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، منصور علي ناصف ، ج١ ص ٢٦ ، رواه الخمسة إلا أبا داود .  
(٢) الأعمال الكاملة ، للطهطاوي ، ص ٤٦٩ - ٤٧٧ ، مع حذف وإضافة لبعض الآراء .



## القومية

القومية مصطلح شائع الاستعمال ، ولكنه معقد في تركيبه ونشأته لأنه يستخدم بمفاهيم كثيرة ومتعددة . وقد حاول الكثير بصياغته تعريف القومية ، والإمام بأكبر قدر من دلالاتها ، فالبعض أشار إلى أن القومية هي حالة عقلية يشعر فيها الفرد بأن ولاءه الأسمى واجب للدولة . وهناك من قال إن القومية هي الإحساس بالانتماء إلى جماعة تملك دولة موحدة في ظل ظروف تاريخية تمت إلى مرحلة اجتماعية معينة . أو لجماعة تحاول التعبير عن ذاتها عن طريق إنشاء مثل هذه الدولة ، وهناك من يحاول أن يعرف القومية بأنها « الانتماء إلى أمة » . وقد ظهرت خلافات كثيرة حول مدلول القومية مثل : « التطلعات القومية ، والشخصية القومية ، والوعي القومي ، والطابع القومي » .

وهناك تقسيمات أخرى يفرق بعضها بين « العوامل المادية » وهي إما وحدة الأرض أو الوحدة الاقتصادية ، « العوامل المعنوية » ومنها العقائد والعادات والمشاعر ووحدة التاريخ والثقافة ، « العوامل الموضوعية » التي يجب أن تتوفر لتكوين القومية وهي : « اللغة » التي يعتبرها الكثيرون أساس القومية ، « الأصل المشترك » وهي نظرية وحدة الجنس وتحتل مكاناً بين نظريات القوميات ، « الإقليم » وهي وجود إقليم معين له حدوده المعروفة لتمارس الدولة سلطاتها بداخله ، « الدين » له دور كبير على نمو المشاعر القومية ، « التاريخ المشترك » من أهم العوامل التي تؤسس الأمم .

وعندما اعتنقت الشعوب العربية الإسلام أصبح لديها كل مقومات القومية العربية . بحيث كان من السهل أن تتجمع كل هذه الدول تحت لواء قومي بكل ما يتوفر لديه من حضارة واحدة ولغة ودين واحد وثقافة مشتركة<sup>(١)</sup> .

**القومية العربية :** حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا .

لقد ظهرت بدايات الفكر القومي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تؤلف من أجلها الجمعيات والخلايا في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم في حركة سرية في عاصمة الخلافة العثمانية ، ثم في حركة علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقراً لها . ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة « ١٩١٢م » . وأن أهم الجمعيات ذات التوجه القومي حسب التسلسل التاريخي وتتلخص في :

١- **الجمعية السورية :** أسسها نصارى منهم بطرس البستاني وناصر اليازجي سنة « ١٨٤٧م » في دمشق .

٢- **الجمعية السورية في بيروت :** أسسها نصارى منهم سليم البستاني ومنيف خوري سنة « ١٨٦٨م » .

---

(١) الموسوعة السياسية المعاصرة ، نبيله داود ، ص ٣٦ - ٣٨ .



٣- الجمعية العربية السرية : ظهرت سنة « ١٨٧٥م » ولها فروع في دمشق وطرابلس وصيدا .

٤- جمعية حقوق الملة العربية : ظهرت سنة « ١٨٨١م » وهي تهدف إلى وحدة المسلمين والمسيحيين .

٥- جمعية رابطة الوطن العربي : أسسها نجيب عزوري سنة « ٩٠٤م » بباريس وألف كتاب « يقظة العرب » .

٦- جمعية الوطن العربي : « أسسها خير الله خير الله » سنة « ٩٠٥م » بباريس ونشر أول كتاب قومي بعنوان « الحركة الوطنية العربية » .

٧- الجمعية القحطانية : ظهرت سنة « ٩٠٩م » وهي جمعية من مؤسسها خليل حماد المصري .

٨- الجمعية العربية الفتاة : أسسها في باريس طلاب عرب منهم البعلبكي سنة « ٩١١م » .

٩- حزب العهد : أسس سنة « ٩١٢م » أنشأه ضباط عرب في الجيش العثماني .

هذا وقد ظلت الدعوة إلى القومية العربية محصورة في نطاق الأقليات الدينية غير المسلمة ، وفي عدد محدود من أبناء المسلمين الذين تأثروا بفكرتها . ولم تصبح تيارًا شعبيًا عامًا إلا حين تبني الدعوة إليها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر حين سخر لها أجهزة إعلامه وإمكانات

دولته . ويعد « ساطع الحصري » رائد القومية العربية وأهم مفكريها وأشهر دعائها ، وله مؤلفات تعد الأساس الذي تقوم عليه فكرة القومية العربية ، ويأتي بعده في الأهمية « ميشيل عفلق » .

ويعني الفكر القومي من شأن رابطة القربى والدم على حساب رابطة الدين . وإذا كان بعض كتاب القومية العربية يسكتون عن الدين فإن بعضهم الآخر يصصر على إبعاده إبعاداً تاماً عن الروابط التي تقوم عليها الأمة . بحجة أن ذلك يمزق الأمة بسبب وجود غير المسلمين فيها .

ويرى دعاة الفكر القومي على اختلاف بينهم في ترتيب مقومات هذا الفكر أن أهم المقومات التي تقوم عليها القومية العربية هي : « اللغة والدم والتاريخ والآلام والأمال المشتركة » . ويرون أن العرب أمة واحدة لها مقومات الأمة وأنها تعيش على أرض واحدة هي الوطن العربي الواحد الذي يمتد من الخليج إلى المحيط . كما يرون الحدود بين أجزاء الوطن هي حدود طائفة ، ينبغي أن تزول وينبغي أن يكون للعرب دولة واحدة ، تقوم على أساس من الفكر العلماني .

يدعو الفكر القومي إلى تحرير الإنسان العربي من الخرافات والغيبيات والأديان كما يزعمون ، وهو يتبنى شعار « الدين لله والوطن للجميع » . والهدف من هذا الشعار ، إقصاء الإسلام من أن يكون له وجود فعلي من ناحية ، وجعل أخوة الوطن مقدمة على أخوة الدين من ناحية أخرى . والفكر القومي يرى بأن الأديان والإقليميات والتقاليد المتوارثة عقبات ينبغي التخلص

منها من أجل بناء مستقبل الأمة . ويقرر الفكر القومي أن الوحدة العربية حقيقة أما الوحدة الإسلامية فهي حلم .

كثيراً ما يتمثل الفكر القومي بقول الشاعر القروي :

هبوني عبداً يجعل العرب أمةً      وسيروا بجثمانني على دين برهم  
سلام على كفرٍ يوحد بيننا      وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

يقول بعض مفكري القومية العربية : إن العربية هي بيننا نحن العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحيين . ويجب أن نغار عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي والمسيحيون على إنجيل المسيح . وأما عن انتشار وموقع النفوذ فإن كثير من الحكماء يتبارون في ادعاء القومية وكل منهم يفتخر بأنه رائد القومية العربية<sup>(١)</sup> .

القومية هي الشعور الذي يربط بين أفراد الأمة العربية ، فهي أمة واحدة تعيش في وطن واحد هو الوطن العربي ، ويشعر أفرادها بالولاء لهذا الوطن ، والاعتزاز بعروبيتهم ، والحرص على سلامة وطنهم الكبير والدفاع عنه . وعلى هذا فالقومية العربية رباط دائم مستمر ، وهي التي جمع العرب جميعاً في وطنهم منذ مئات السنين . وللقومية العربية جذور عميقة يشعر بها كل عربي ، وهذه الجذور أو الأسس تعتبر من مقومات القومية العربية التي تتلخص في التالي :

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ، ص ٤٠١ - ٤٠٥ .

## أولاً : التكامل الجغرافي :

يمتد الوطن العربي بلا انقطاع من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً ، ومن البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس شمالاً إلى المحيط الهندي ووسط إفريقيا جنوباً . وتبلغ مساحته حوالي ( ١١,٥ ) مليون كم<sup>٢</sup> أي أكبر من مساحة قارة أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية .

يقع الوطن العربي عند ملتقى ثلاث قارات « آسيا ، إفريقيا ، أوروبا » ويربط هذه القارات كما يربط البحار المتصلة بها ، ويتمتع بموقع ممتاز من العالم ، فهو ممر بحري وجوي وبري عالمي بين القارات الثلاث ، وهو حلقة الوصل بين الشرق والغرب .

فالوطن العربي الكبير تكاد تتشابه الأرض في كل أقطاره ، كما تتصل سواحله المطلّة على البحر الأبيض المتوسط من أقصى شمال سوريا إلى أقصى المغرب العربي . وأن أنهاره وصحاريه لا تعتبر عوائق تفصل بين أجزائه وإنما تربط بينهما .

كما تعتبر بادية الشام امتداداً لصحراء الجزيرة العربية ، وتمتد الصحراء الغربية في مصر إلى ليبيا وتونس والجزائر ، ويعتبر البحر الأحمر بحيرة عربية . كل هذا جعل الأرض العربية موطناً للعرب ، لا يستطيع أي جزء منها أن يعيش منفصلاً عن غيره من الأجزاء . ولقد عاش الشعب العربي في هذه المنطقة منذ آلاف السنين ، ولم يعرف حدوداً تقسمها إلا في القرون الأخيرة .

## ثانيًا : وحدة اللغة :

اشترك العرب في لغة واحدة « اللغة العربية » تجعلهم أبناء أمة واحدة تتميز عن الأمم الأخرى . ويكفيهم عز وفخر أنها لغة كتاب الله العزيز « القرآن الكريم » قال الله عز من قائل : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾<sup>(١)</sup> .

لقد انتشر في أنحاء الوطن العربي الطراز العربي الإسلامي في المساجد والمباني ، وترجم الكثير من كتب الثقافة العربي إلى اللغة اللاتينية ، وكان لها أثر كبير في قيام الحضارة الأوروبية الحديثة . ولم تسمى هذه العلوم والفنون بأسماء إقليمية ، وإنما سميت بالأدب العربية ، والفنون العربية ، والعلوم العربية . وسميت هذه الحضارة باسم « الحضارة العربية » ، أي أن العرب لم يعرفوا الإقليمية في إنتاجها ، فحاضرتهم تعبر عن أمة واحدة هي الأمة العربية .

## ثالثًا : وحدة المصالح :

العرب كأمة واحدة لهم مصالحهم المشتركة تتلخص في : « المصالح السياسية حيث أثبت التاريخ أن مصالح العرب السياسية واحدة ، وأن تضامن العرب يزيد من قوة الأمة العربية في المجال الدولي . كما أن المصالح الدفاعية والعسكرية في اتحاد الأمة العربية ليزيد من قدرتهم على مواجهة احتمالات العدوان مهما كان مصدره ، وفي ذلك تأمين لاستقلال الدول العربية . وأن المصالح الاقتصادية للأرض العربية متنوعة متكاملة يستطيع

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ - ١٩٥ .

بعضها أن يسد حاجة البعض الآخر . وعن طريق التعاون الاقتصادي يمكن للوطن العربي أن يكتفي ذاتيًا إلى حد كبير ، ويعود بالخير على جميع أبنائه»<sup>(١)</sup> .

---

(١) الوحيد في التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، محمد أمين ، ص ١ - ٩ .

## القومية والإسلام

كانت الدنيا بشر ، وكان البشر قد قست قلوبهم ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة . وانقسم المجتمع إلى طبقات تتصارع ، ودماء تتفاضل وأجناس تختلف وشعوب تتناكر . ونسي الناس تعاليم السماء وهدى الأنبياء وما جاءت به الرسل . ومزقت البشرية مزقاً ، وتفرقت عصابات ، وأصبحت الأرض وقد ضاق بها البشر ، بعد أن ضاقت بهم .

لقد أرسل الله لهم الأنبياء وبعث الرسل ، وكانت دعوتهم واحدة الناس كلهم لآدم وأن ربهم واحد ، وأن لا تفاضل بلون أو عرق أو جنس . ولكن الناس سرعان ما ينحرفون ، وسرعان ما يلحق الفساد عقولهم ، ويستولي الشر على النفوس . ولكن الفساد لم يتركه الله تعالى يطغى على الناس بل كان يرسل إليهم الرسل مبشرين بالخير ومنذرين من الشر ، فكان بعض البشرية يستجيب وأكثرها يعرض .

وكان لكل أمة رسول ، ولكل قوم نبي ، وكانت الإنسانية قد شبت عن الطرق فلا بد إذا من أن تبلغ رشدتها ، فتوحد في دين وترتبط بمبدأ ، وتلتقي على فكر واحد . فكان لابد من نبي واحد لكل الناس ولكل الأجناس والألسن . فكان النبي الأمي سيد الخلق رسول الله محمد بن عبد الله ، أرسل في جزيرة العرب وغير العرب . ولكنه جاء لشبه الجزيرة العربية ولكل القارات . وبدأ القرآن ينزل يقرع الأسماع ويهز الأعماق ، وينادي بعبدة الطاغوت وعبدة الأوثان وعبدة الإنسان أن أفيقوا من غفوتكم وتفكروا في خلق السماوات والأرض .

ويبدأ صوت الحق يعلو ، ويحصل صدى لهذه الدعوة في الأقطار  
المجاورة لشبه الجزيرة ، وبدأت شبه الجزيرة تستسلم للنبي ﷺ وللدعوة .  
ولكن النبي لم يرسل للعرب وحدهم ، إنه كان نبي الإنسانية ، إذا فليراسل  
الملوك والرؤساء في العالم القديم كله : فبعث سليط بن عمرو إلى صاحب  
اليمامة ، وعلاء الحضرمي إلى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى  
صاحب عمان ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، ودحية الكلبي إلى  
قيصر ملك الروم . واضطرب الملوك والحكام ماذا يريد هذا الرجل الذي جاء  
من العرب . هؤلاء الذين لم يكن لهم وزن في السياسة الدولية ، ولا يكثر  
بهم أحد ، ولا يرهبوا عدو ، ولا يسعى إلى صداقتهم صديق . فما هذا الرجل  
لا يكفي بقومه بل يريد الناس كل الناس .

وهكذا أصبحت الدعوة تسير في الأرض وتتأقلمها الدنيا ، ويبدأ  
الصراع بين المسلمين والعرب ، وليعلن رسول الله ﷺ تطهير أرض الجزيرة  
من عبادة الأوثان . ثم يتسع الصدام بين المسلمين وبين الروم ومن تبعهم من  
قبائل العرب التي كانت في أطراف الجزيرة العربية من جهة الشام . ثم يمتد  
الإصطدام حتى يشمل فارس ومن معها من قبائل العرب التي كانت تسكن  
أطراف الجزيرة من جهة العراق وفارس .

إنه صدام لم تكن القوميات فيه المتحاربة . ولم يكن العرب في  
وضعهم الجديد دعاة عنصر وأهل تعصب ، وإنما حملة هداية ورسالة خير .  
يريدون أن تهتدي البشرية على أيديهم برسالة السماء وتتقذ من ظلامها بنور  
القرآن . كما يريدون من البشرية أن تتأخى ، وأن يجمعها دين الله فتتلاقى .



قال الله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) .

وإذا المحبة تسود والإخاء يلتقي ، وإذا الناس أبناء رجل واحد وأم واحدة كما خلقهم الله . وإذا الإنسانية تلتقي لأول مرة في تاريخها ينسى الفارسي ناره وعنجهيته ، وينسى الرومي تقديس البشر ، وينسى العربي قبليته وعنصريته ، ويلتقي الإسلام بهم جميعًا فإذا هم في الله متحابون وعلى رسالته مجتمعون .

وإذا الجيش جيش الإسلام يلتقي فيه موسى بن نصير العربي مع طارق بن زياد البربري ، وإذا مالك بن أنس العربي لا يبرزه في علمه واجتهاده إلا أبو حنيفة الفارسي . وإذا العقل البشري يتخلى عن كثير مما ألف من الخرافة التي تجعله يتعلق بالدم والعنصر للتفاضل بالتقوى . وامتزجت الألوان ، وامتزجت الأجناس ، فلا عربي ولا فارسي ، ولا رومي ، ولا كردي . ولا يستطيع واحد أن ينتسب إلى أرومة معينة مدعيًا خلاصة السلالة ونقاء الدم . والتقى الناس على فكر واحد يتفاعلون معها ، فكانت هذه الثروة الفكرية التي تغذي قسمًا كبيرًا من الإنسانية ، وتجعل حياتها اليوم تتجه إلى منحى واحد ليس فيه تعجرف العنصريين ، ولا تعصب القبليين ، ولا سخافة المميزين بالألوان ولا المتفاضلين بالأجناس (٢) .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٢) أضواء كاشفة ، أسعد بيوض التميمي ، ص ٨٠ - ٨٨ .

إن العروبة بمعناها الثقافي هي اللغة بعلموها المختلفة جزء من الإسلام لا يتجزأ .

قوة دافعة للبشر في طريق صاعد ، حتى وقف المسلمون على قمة الزمن يشيرون الناس إلى درب الخلاص وطريق النجاة ، واستمر ذلك عدة قرون .

فلما استولى على الأمر في بلاد المسلمين ، مسلمون تركوا لغة الإسلام جهلاً منهم بالأمر الذي سبب الكارثة . فثارت في أعماقهم بقايا التعصب للغتهم وقومهم ، فتركوا لغة الإسلام اللغة العربية . عندها بدأ أول الانحراف ، وسارت الأمة في طريق الهبوط . وقد وصلت إلى ما هي عليه الآن من جمود عقلي ، وانحدار سياسي وتأخر اقتصادي ، وتفكيك إلى دويلات لا يكاد يتفق على عددها علماء الجغرافيا . وصادف في أثناء ذلك أن جاءت طبقة من العلماء أغلقت باب الاجتهاد ، وأرغمت العقول على الجمود والتقليد . مما سبب في الفكر جموداً ، وفي التشريع من كل مجلوب لا يسعد .

وقد جاء عصر المماليك الذين قدموا للإسلام خدمات جلّى ، دفعوا عنها أخطاراً عظيمة ، ولكنهم كانوا غير منتبهين إلى خطر فصل اللغة العربية عن الإسلام . هذا الإسلام الذي جعل المسلمين يتوحدون في الحرب الصليبية من جديد : « العربي ، والكردي ، والتركي ، وغيرهم » وكل المسلمين وكل الأجناس ، وكل الألوان ، وكل اللغات التي دخلت بوتقة الإسلام . ليصهرها ويكون منها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتدحر العدو وتطهر البلاد .

فلمسا ولت الصليبية الأدبار منهزمة رجعت إلى وكرها في أوروبا .  
وصادف بعدها أن جاءت النهضة الصناعية ، فلم تتم أوروبا على الهزيمة بل  
فكرت كيف تمزق المسلمين وتشتت العالم الإسلامي . ولقد عرفت بعدها كيف  
تعمل ، بعد أن وجدت أن الإسلام يوحد الفكر ، ويوحد المشاعر ، ويجعل  
المؤمن ينسى نفسه في ما يعتقد ، فيقدم نفسه في سبيل الله .

فكان لابد أن يسزع الفكر الإسلامي من الرؤوس ، وأن يعري  
المسلمين من إيمانهم ومن أفكار مبدئهم حتى يعود إلى ما قبل الإسلام إلى  
العصبية والتفاخر بالأنساب والأجناس . وبالفعل كان الغزو الثقافي بعيد الأثر  
في تمزيق العالم الإسلامي ، وإيجاد العصبية للجنس وللقوم .

وجاء عصر الانحطاط العقلي ، وخيم الظلام وانتشرت الخرافات التي  
تسربت إلى الدين ، وظهرت قاعدة خاطئة ليس لها من الدين أساس . كان  
موقف المنتسبين للعلم أثر واضح في أن يتجه بعض الشباب المتعلم عن البعد  
عن الإسلام رويدًا رويدًا خصوصًا أن أكثرهم تعلم على أيدي الغربيين الذين  
قامت نهضتهم على أساس فصل الدين عن الحياة . لقد قاس هؤلاء الدين  
الإسلامي بغيره من الأديان وأرادوا نهضة أمتهم على أساس فصل الدين عن  
الحياة . وأخذ الاستعمار يشجع هذه الفكرة حتى يصل إلى مبتغاه في تفريق  
المسلمين وتمزيقهم .

لقد ركز الاستعمار في الأذهان أن الوحدة لا يمكن أن تتم للاختلاف  
الحضاري بين أجزاء الأمة ، مع أن حضارة الأمة واحدة . ولكن الشعور  
برغم كل العوائق التي وضعها الاستعمار بدأ ينمو رويدًا رويدًا . وخشي

الاستعمار أن بقي هذا الشعور يعمل وحده أن يؤدي إلى وحدة حقيقية تستند إلى حضارتنا ومبادئنا . فنعود للعالم مرة أخرى كما أرادنا الله خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فأخذ يعمل على التجزئة باسم الوحدة ، فشجع على إنشاء الجامعة العربية التي تنص على بقاء التجزئة إلى الأبد . إذ أن كل دولة من الدول الأعضاء في الجامعة ملزمة بالمحافظة على حدود الدولة الأخرى وخشي المستعمر أن يقوم شعور يؤدي إلى العودة للإسلام نظام حياة ومبدأ تحضير وقيادة فكر وفلسفة وجود .

لقد أراد المستعمر أن يصرف شباب الأمة عن سير عظمتهم وممكن قوتهم ، فأوعز إلى بعض الشبان العرب من غير المسلمين في أن يؤلفوا أحزاباً تقوم على أساس الفكرة القومية التي لا تعترف بالإسلام ، ولكنها تعترف بالعنصر . وركز في الأذهان أن الإسلام يجب أن يفصل عن الحياة ويبعد عن الدنيا . وأن الدين عهده قد ولى ، وأن الدعوة إليه رجعية لا تتفق مع الإنسان المتحضر . وقد شجع هذا الأمر وهو تشويه الإسلام بعض الحركات الإسلامية التي لم تكن تعرف ما تريد وإنما تدعو إلى الإسلام المفتوح بشكل غامض لا يستثير به عقل . ولكن الإنصاف يدعونا إلى أن من بين هؤلاء علماء رجال عمر الإيمان قلوبهم ، وصدقوا أمرهم مع ربهم .

وأن هناك مقارنة لدعاة القومية العنصرية ، بينما عملته الأمة المسلمة يوم استنارت بنور الله فكان الإسلام مبدأها ، وكان القرآن ميثاقها ، وكانت السنة طريقها . فاستولت على الدنيا لا مستعمرة ولا غازية ولكن محضرة ومعلمة . وأما اليوم وفي ظل الدعوة إلى القومية ، فحين نقدم حسابنا فلا نجد أننا ربحتنا شيئاً ، ألم تستمر التجزئة ؟ ألم تثبت الفرقة ، أين فلسطين . لقد

قدمها أبو عبيدة بن الجرح وعمر بن الخطاب لهذه الأمة باسم الله واسم الإسلام ، وضاعت في التاريخ مرة وعادت باسم الله وباسم الإسلام .

والأمة اليوم تتكون من أقوام مختلفين وعناصر متباينة ، فإذا دعا العربي إلى قوميته نادى الكردي بكرديته ، وإذا فضل الجزائري العربي والمغربي عربيته ثارت في البربري الجزائري أو المغربي عنصريته وهو محق في ذلك . فليس لجنس أن يدعي التفوق على جنس آخر وليس قوم خير من قوم . فإذا أردنا من الكردي أن يضع سلاحه وأن لا يثور البربري علينا أن ندعوهم إلى عقيدتنا وعقيدتهم إلى الإسلام إلى الذي يحارب الفرقة ويدعو إلى المحبة والوحدة<sup>(١)</sup> .

إن من أخطر ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينية لمحو شريعة الله من الأرض . وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة .

إن روح الجاهلية بالعودة بالمسلمين إلى جاهلية العرق والنسب والتراب والتي تبدو فيها صورة منافاتها وتناقضها للعقيدة الإسلامية . ومن ذلك « القومية » التي تحصر الولاء في دائرة الجنس أو التراب ، فيلتقي فيها المسلم العربي مع المشرك العربي لأن رابطة القومية تجمعهم . فالرابطة في ديننا الحنيف رابطة العقيدة ، فضلاً أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٢ - ١٠٠ .

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظله راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد . ولقد كان المسلم كلما حل أرضاً وجد فيها له إخوة في الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة . لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية . ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكين عدوهم من أنفسهم سهل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله ، وهم اليهود والنصارى .

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام بث سمومه لنزع الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر . وأخذت هذه بالمغالطة عند البعض بأن هذه الأفكار لا تتعارض مع الإسلام . ويقال ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلماً وقومياً أو مسلماً علمانياً ، وأدرك أعداء الإسلام مدى جدوى وفعالية ذلك . بدؤوا ببث فكرة القومية ، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إسلامية . حيث نشأت هناك « القومية الطورانية » وتزعم هذه الدعوة حزب « الاتحاد والترقي » فبدأ « بتتريك » تركيا وعودة القومية الطورانية متخذين لذلك شعار « الذنب الأغبر » الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام .

وبهذا التتريك أخذت الدولة العثمانية تضغط على العرب ، حيث تعطي الأتراك امتيازات خاصة بهم لأنهم ترك . وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضاً مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة<sup>(١)</sup> .

ونادى دعاة القومية الناس فقالوا : ما المانع أن يكون المسلم العربي عربياً مسلماً ، ثم قالوا يكون عربياً فقط . أليس الإسلام عربياً إذاً ما هو عيب القومية العربية . إن العرب إذ ذلوا ذل الإسلام فلننادي بالقومية العربية . وهذا كلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء «صلاح الدين الكردي» وجاء «قطز المملوكي» فأنقذا المسلمين من ذلك الهوان ، وانتصر القائدان بقولهما وإسلاما . ولم يكن في حسم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية<sup>(٢)</sup> .

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع

هذه النعرات فجمع في دعوته بل في أول دعوته : «أبا بكر العربي القرشي ، وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي» . وكما

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام ، محمد القحطاني ، ص ٤١٧ - ٤٢٤ .

(٢) المذاهب الفكرية المعاصرة ، محمد قطب ، إملاءات عام ١٣٩٩ هـ .

قال عمر رضي الله عنه : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا التمسنا العزة بغيره أذلنا الله .

إن تقليد الغرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكرة : يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كان أحدهما يحمل ملحًا وكان الآخر يحمل إسفنجًا . فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً ، فخطر له أن يحصل على المزية نفسها بالأسلوب نفسه فكانت النتيجة على عكس ما توقعه وخرج من تجربته أثقل حملاً<sup>(١)</sup> .

القومية ظاهرة برزت في المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر ، يمجّد جماعة محدودة من الناس ، يضمها إطار جغرافي ثابت ، ويجمعها تراث مشترك ، وتنتمي إلى أصول عرقية واحدة . والقومية بهذا المعنى تدعو أصحابها إلى العمل على تعزيز ثقافتهم الموحدة ، وتدعيم تراثهم المشترك ، وتنمية مصالحهم الخاصة . مع حصر جهودهم في هذا النطاق وحده ، دون نظر إلى الاعتبارات التي كانت تجمعهم قبل ذلك مع غيرهم في رباط مشترك .

---

(١) الإسلام ومشكلات الحضارة ، الحضارة الغربية ، سيد قطب ص ٢٣٧ .



وقد انتقلت عدوى هذه النزعة القومية إلى العرب ، وإلى المسلمين على وجه العموم ، وأصبحت ظاهرة بارزة في البلاد العربية والإسلامية مع مطلع القرن العشرين الميلادي . ودخلت هذه المجتمعات في صراع بين هذه المفاهيم القومية المستحدثة ، وبين المفاهيم الإسلامية التي لا يقوم فيها اعتبار للأجناس . والتي تعتبر المسلمين حينما كانوا أمة واحدة الدين فيها مقام النسب .

انتشرت هذه الدعوات القومية بين المسلمين في البلاد العربية ، وفي البلاد الإسلامية . وأخذت القومية العربية التي بدأت إلى جمع شمل العرب في دولة واحدة ، فقد كانت منذ نشأتها ، ولا تزال موضع جدل كثير . نتج عما أحاطها في أذهان العرب والمسلمين من لبس يرجع إلى أن العرب هم جرثومة الإسلام وأصله الأول ، وإلى أن لغتهم هي لغة الإسلام التي نزل به كتابه ، والتي تؤدي بها كل شعائره . وبرزت كلمات «العروبة» ، والجامعة العربية ، والقومية العربية « على التعاقب . ثم اختلطت مفاهيمها ، وكان المقصود بها في كل الأحوال هو الصفات الجامعة لذلك الجنس من الناس المسمى عند المعاصرين «بالعرب» . والمحافظون من دعاة القومية العربية يرون أنها فرع من التصور الإسلامي خاص بالذين يتكلمون العربية من المسلمين أو الدول التي ضمتها الخلافة الإسلامية منذ ظهور الإسلام . أما المتفرنجون من دعاة القومية العربية ، فهم يستمدون تصورهم من غلاة

القومية عند مفكري العرب ، ولا يقيمون وزناً لتقديم العرب الإسلامي الذي حدد شخصيتهم ، ولا يرتبطون بالسلمات التاريخية بهذه الشخصية .

كانت كلمة « العرب » تطلق قبل الإسلام على سكان جزيرة العرب وتتابع هجرة القبائل العربية إلى الأمصار المفتوحة على اختلاف أسبابها ، منهم من هاجر في سنوات القحط وفي أوقات الجفاف ، فاستقر في موطنه الجديد . ومنهم من ذهب مع الجيوش الفاتحة ، ثم لم يعد . ومنهم من هاجر استجابة لدعوة أمراء العرب في هذه الأمصار الذين رأى بعضهم أن يستقدم بطوناً من عشيرته يتقوى بهم ، وكان العرب في أول الأمر ، على امتداد الدولة الأموية يترفعون عن الاختلاط بأبناء البلاد المفتوحة ، وكانوا يعتزون بأنسابهم في قبائلهم . ولذلك حرصوا على حفظها من الاختلاط بغيرهم ، وظل اسم « العرب » طوال مدة الدولة الأموية يطلق على المنتسبين إلى هذا الجنس ممن قدموا على الأمصار المفتوحة . وذلك مقابل اسم « الموالي » الذي كان يطلقه العرب على من عداهم من الأجnas في هذه البلاد ترفعاً واستعلاء . ولم ينته القرن الأول الهجري حتى كانت اللغة العربية لغة التخاطب والتعامل والتدوين في هذه البلاد جمعياً ، وأصبح الإسلام دين السواد الأعظم من سكانها . وكادت لغات البلاد القديمة تنسى بعد أن أقبل الناس على العربية : ( قرأنا وحديثاً وشعرًا ولغةً ) ، يحاولون إتقانها ومنافسة العرب أنفسهم فيها<sup>(١)</sup> .

---

(١) تاريخ الإسلام والحضارة الغربية د/محمد حسين ، ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

وعلى توالي الأيام زاد امتزاج العرب في الأمصار بأبناء البلاد بالتصاهر ، واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال ، فضعفت العصبية العربية المبينة على النسب تبعاً لذلك<sup>(١)</sup> .

وزاد على مر الأيام عدد الفقهاء والشعراء والمشتغلين بالعلوم العربية . وبذلك انتهت النعرة العنصرية العربية ، وأصبحت الصبغة الظاهرة في البلاد الإسلامية على اختلافها هي الإسلام . وأصبحت اللغة العربية خطأ شائعاً بين العرب وغير العرب بلا تمييز ، بل أصبح عدد المشتغلين بها أكثر عددًا وأغلب شهرة . مثل : «أبو حنيفة الفقيه ١٥٠ هـ» فارسي ، ومحمد بن إسحاق أول من دون السيرة النبوية «١٥١ هـ»<sup>(٢)</sup> ، وسيبويه أبو النحو «١٨٣ هـ» فارسي ، والبخاري شيخ المحدثين «٢٥٦ هـ» تركي ، والطبري شيخ المؤرخين والمفسرين «٣١٠ هـ» تركي ، وابن سينا أبو الطب العربي «٤٢٨ هـ» أفغاني ، وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية «٥٦٤ هـ» كردي . وبذلك صح أن توصف هذه البلاد جميعاً بأنها عربية ومسلمة في آن واحد ، دون أن تغلب فيها إحدى الصفتين على الأخرى .

ويتبين لنا بوضوح أن البلاد العربية كلها ليس لها تاريخ في العروبة يسبق الإسلام ، بل إن عروبتها في الحقيقة تتأخر عن إسلامها ، وهذه العروبة لم تجئها إلا من طريق الإسلام وبسببه . ذلك بأن الإسلام دعا

(١) تاريخ ابن خلدون ، ٦ : ٣ .

(٢) الأعلام ، للزركلي ج ٦ ص ٢٥٢ ، وكان جده يسار من سبي عين التمر والمطلبي بالولاء .

المسلمين إلى أن يحبوا العرب ، ويلتفوا حول رايتهم ، ويتخذوا العربية لغة جامعة لشملمهم .

من أجل ذلك كان التفريق بين العروبة والإسلام في أيامنا هذه لا يستند على أساس . فالإسلام هو الذي أعطى للعرب لغتهم ، ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابه الكريم وسنة نبيه ﷺ . ولم يقتصر الأمر على قيام هذه الروابط الإسلامية الجامعة بين العرب ، فقد امتدت آثارها إلى سائر المسلمين ، الذين تأثروا بهذه القيم والنظم الخلقية والاجتماعية ذاتها . والذين إن فساتهم اتخاذ العربية لغة لهم ، فلم يفتهم اتخاذ حروفها لتدوين تراثهم ومعارفهم . نشأت حين الدعوة المعاصرة إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، أو ما كان يسمى وقت ذاك بالجامعة العربية ، ويعنون بها الرابطة لشملم العرب . كان العرب يشكلون الجزء الأكبر من الدولة العثمانية . واتخذت الدعوة في أول أمرها شكلاً ثقافياً يعني ببعث التراث العربي ، والدعوة إلى الاهتمام باللغة العربية ، وجعلها لغة التعليم والقضاء والدواوين في البلاد العربية بدلاً من اللغة التركية التي كانت هي اللغة المستعملة . وكانت كثرة كبيرة من رجال الرعيل الأول في هذه الحركة وفي هذا البعث من مسيحي لبنان . ومنذ ذلك الوقت نشأت التفرقة بين العروبة والإسلام على يد هذه الطائفة ، ولم يعد اسم الجامعة العربية مرادفاً لاسم الجامعة الإسلامية .

والواقع أن الذين دعوا إلى الجامعة العربية كانوا مختلفين في تصورهم لهذه الجامعة ، متباينين في أغراضهم التي يستهدفونها من وراء هذه

الدعوة . كانت الجامعة الإسلامية وقتذاك هي الرابطة التي تربط أجزاء الدولة العثمانية . وبدعوة الناس إلى الالتفاف حول رايها والاعتصام بها في وجه الأطماع الاستعمارية التي تنظر بفارغ الصبر الوقت الملائم لاقتسام البلاد الداخلة في هذه الدولة إلا أن بعض دعاة الجامعة العربية من المسلمين لا يرون تعارضاً بينها وبين الجامعة الإسلامية ، ويسلمون بأنها الجامعة الأهم بين المسلمين في سائر بلاد الأرض . ولكن فريقاً من هؤلاء المسلمين الذين يتمسكون بالجامعة الإسلامية ، كان يرى التفرقة بين الخلافة وبين السلطنة ، بجعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك ، وحجتهم أن العرب هم أقدر الناس على فهم الإسلام وتبليغه .

وكان هناك فريق ثالث من المسلمين واقع تحت تأثير الدعوات القومية المتطرفة التي اشتدت حركتها في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وهؤلاء كانوا يتصورون الجامعة العربية تصوراً قومياً خالصاً ، ويجردونها من كل صلة بالدين . وكان الشغل الشاغل لهذا الفريق هو إنشاء دولة عربية مستقلة على النمط القومي الغربي . وهذا الفريق يلتقي في تصوره القومي مع غلاة القوميين من الترك ، الذين يدعون إلى القومية «الطورانية» .

أما المسيحيون ، فقد كان من الطبيعي أن يكونوا ضمن الفريق الذي يرى الجامعة العربية قومية خالصة ، لأنه غير داخل بحكم مسيحيته في الجامعة الإسلامية ، وليس له ولاء قلبي لها ، فكل الذي يربطه بالدولة هو الولاء الوطني . وكان من الطبيعي أن يجد الإستعمار والصهيونية في هذا

الفريق الأخير من المسلمين والمسيحيين على السواء صيذاً يمكن أن يلتقي معه في فترة مرحلية تمهد لتحقيق أغراضه . فالإستعمار الإنجليزي كان طامعاً في العراق ، وفرنسا كانت تطمع في الشام والصهيونية العالمية كانت طامعة في الاستيلاء على فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود ، فكانت الجامعة العربية أو القومية العربية تمثل في نظر الفريق فترة مرحلية للإستقلال عن الدولة العثمانية . وقد واكبت نشأة الجامعة العربية سوء ظن متبادل بين العربيين والإسلاميين . فالإسلاميون يرون أن هذه الدعوة العربية التي نشأت في حضانة أمريكية صهيونية والتي تساندها إنجلترا وفرنسا وتمدانها بالمال والسلاح لا يمكن أن تخدم إلا مطامع الإستعمار والصهيونية<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت دار الإسلام هي الوطن الأكبر بالنسبة للمسلم ، فإن هذا لا يعني انتفاء حب المسلم لوطنه الأصغر الذي نشأ فيه . فالجهاد في سبيل الوطن الأصغر فرض عين ، بينما هو فيما وراء ذلك من أقاليم الوطن الأكبر من فروض الكفايات . والأقربون أولى بالمعروف والزكوات والصدقات لا تخرج من المدينة أو الإقليم أو الوطن إلا بعد كفاية ساكنيه . وتلك الشواهد على اتساق الأحكام الشرعية والتكاليف الإسلامية مع توالي وتدرج ، وترابط دوائر الانتماء الإسلامي في إطار الإسلام .

إن رسول الله ﷺ هو القدوة والأسوة في هذا المقام ، التي حاصر أهلها دعوة الإسلام ، واستفروه ﷺ من الأرض إخراجاً ، وهما وليثبتوه ويسجنوه .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربي ، د/محمد حسين ، ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

بل ودبروا لقتله . مكة هذه ، وهي على هذا الحال ، ظل القلب النبوي جياشاً بحبها ، حتى لقد ناجاها لحظة الخروج منها يوم الهجرة حدثنا الليث عن عقيل عن الزهري عن أبي سلمه عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال : رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة « التل الصغير » فقال : (( والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت ))<sup>(١)</sup> .

بل وظل قلبه ﷺ جياشاً بحب مكة وهو في المدينة ، حتى لقد كان يدعو ربه أن يحبب إليه المدينة كحبه لمكة . وكان حريصاً في المدينة على أن يسمع من القادمين من مكة وصف معالمها والتذكير بمشاهدها . وعندما كانت الأوصاف تؤجج المشاعر ، كان يطلب من الواصفين التوقف « لتقر القلوب » .

كذلك الحال مع الدائرة التالية « الوطن ، الإقليم » أي « الوطن - الذي يعيش فيه قومي » وكلمة « قوم » التي اشتقت منها « القومية » ، هو مصطلح « عربي ، قرآني » . وفي القرآن الكريم حديث عن العرب ، قوم الرسول ﷺ « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »<sup>(٢)</sup> .

فقوم الإنسان هم الدائموا الإقامة معه ، الذين تربطهم به الروابط التي اصطلح على تسميتها « سمات القومية » ، وهي التي تحدد اللغة دائرتها وخريطتها . فالقومية في الرؤية الإسلامية هي الدائرة اللغوية في إطار

(١) سنن الترمذي ، ج ٥ ص ٧٢٢ ح رقم ٣٩٢٥ .

(٢) سورة الزخرف آية : ٤٤ .

الانتماء الإسلامي الأكبر ، وعالمية الإسلام لا بد أن تشمل أقوامًا تميزهم اللغات والألسنة قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾<sup>(١)</sup> . فإذا كان اختلاف اللغات سنة وآية من سنن الله وآياته ، فلا بد أن تشمل عالمية الإسلام أقوامًا وقوميات تتمايز لغويًا ، أي قوميًا ، في إطار محيط الانتماء الإسلامي الأول .

وإذا كان الغلو في العصبية الوطنية هو الذي يجعل « الوطنية » في حالة تناقض مع ما يليها من دوائر الانتماء القومي والإسلامي ، ومن ثم يخرجها عن أن تكون انتماءً فرعيًا في إطار الانتماء الأكبر ، ويجعلها نهاية المطاف وغاية الأفق بدلاً من أن تكون درجة في سلم الانتماء المتعدد الدرجات ، وهذا اللون من « الوطنية » هو المرفوض إسلاميًا . فإن « القومية » إذا خرجت مضامينها عن دائرة « اللغة » ، وأصبحت عرقًا وعنصرًا ، يعزل القوم عن الدائرة الإسلامية ، أو يضعهم في تناقض مع الملة ، فإنها تخرج المفهوم والمضمون عن أن تكون حلقة وصل بين « الوطنية » وبين « الجامعة الإسلامية » ، وتتحول من درجة في سلم انتماء أكبر إلى « عازل » ونقيض « للوطنية » و « للإسلامية » معًا . وهذا المعنى الضيق للقومية مرفوض إسلاميًا .

وفي دائرة الأمة الإسلامية ، ودار الإسلام ، والانتماء الإسلامي « دوائر لغوية » أي « قوميات » ، وإذا نحن نزعنا العنصرية التي تجعل عوامل تشرذم للانتماء الإسلامي ، فإن الانتماء الإسلامي سيحتضن محيطه « الجزر

---

(١) سورة الروم آية : ٢٢ .



القومية « في عالم الإسلام . وهذه الحقيقة أشد وضوحاً مع « القومية العربية » ، لأن اعتماد « العربية » - كلغة - معياراً لتحديد « العربي » و « القوم العرب » سيدخل العروبة في النسيج الإسلامي إدخالاً عضوياً . لأن اللغة العربية هي في الوقت ذاته لسان الإسلام ، وخاصة الإعجاز القرآني ، وسبيل الاجتهاد واستنباط الأحكام من المصادر الأصلية للإسلام .

وكذلك الحال مع « الدوائر الإسلامية » أو « الجامعة الإسلامية » ، وهي دائرة الانتماء الأكبر . فعلينا أن نراها محتضنة ومستوعبة دوائر الانتماء الفرعية وطنية وقومية ، بل وأحياناً قبلية وعشائرية . وأن نرفض التناقض الذي يفتعله البعض بينها وبين الولاءات والانتماءات الفرعية والصغرى .

إن التشديد على الدائرة « الوطنية ، القطرية ، الإقليمية » ، هو مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « الوطنية » . وكذلك الحال التشدد في النظر إلى الدائرة « القومية ، عربية أو غير عربية » ، مع إسقاط الدائرة الإسلامية هو الآخر مفهوم عنصري ضيق الأفق لمصطلح « القومية » . طرأ على فكرنا من المفاهيم القومية الغربية . التي تشابه « العصبية الجاهلية الأولى » .

وإذا نحن اعتمدنا علاقة الأخص بالخاص والعام بالأعم لدوائر « الوطنية » و « القومية » و « الجامعة الإسلامية » و « الإنسانية » ، انتفت هذه التناقضات المفتعلة . ذلك بإحلال منهاج الفطرة السليمة محل المفاهيم العنصرية الطارئة على حياتنا الفكرية العربية الإسلامية .

ولقد كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة على وعي بالمنهاج الإسلامي في هذا الموضوع ، فصاغت الموقف الفكري الإسلامي الخاص به ، ومارست عملها دونما اعتبار للعصبية والتشردم الإقليمي والعنصرية القومية ووفقاً للشريعة الإسلامية . فالإسلام هو الرابط فحسب والإسلام اعتبر الحق لدار الإسلام من منطلق المصلحة لا القومية ولا الوطنية .

صاغ الشيخ حسن البنا رحمه الله قضية الانتماء على النحو الذي لا زيادة بعده لمستزيد ، ومما قاله فيها : ( إن المسلمين يحبون وطنهم ويحرصون على وحدته ، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده المسلم ، وأن يعنى في سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخر . وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحماً وجواراً .

فالوطنية لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام . أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة ، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية . ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً ، ووصل إلى الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين . وقد جاء في الأثر : إذا ذل العرب ذل الإسلام . وقد تحقق هذا المعنى حين ذل سلطان العرب السياسي ، وانتقل الأمر من بين أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ، فالعرب هم عصبية الإسلام وحراسه (١) .

---

(١) مجموعة رسائل الشيخ حسن البنا ، ص ١٧٦ - ١٧٨ .

أما عن حديث العروبيين الذين يجردون العروبة من الإسلام ، والإسلاميون اللذين يسيئون الظن بالعروبة والقومية العربية ، بدعوى أنها تفتت الوحدة الإسلامية . نقول للفتنتين إن الانحراف الذي صحب الدعوة إلى جامعة إسلامية في ظل دولة إسلامية جامعة للشمل قد دفنت بالأمس . أما اليوم إذا صححت مسيرتها ، فالخطوة الأولى ، إلى تحقيق هذه الجامعة الإسلامية هي الجامعة العربية . فالعرب هم أقرب الناس بين المسلمين إلى تحقيق وحدة جامعة بحكم اللغة المشتركة التي تربط بعضهم ببعض من ناحية ، والتي تربطهم بأصول الدين الإسلامي من ناحية أخرى . وبحكم تجمع دولهم وتلاصقها في حيز مكان واحد لا تقوم بين أجزائه عوائق أو فواصل طبيعية . وهم بحكم هذا التقارب والتآلف واتفاق العادات أو تقاربها مهيون لأن يكونوا نواة إسلامية صلبة تشيع على العالم الإسلامي من ثقافة الإسلام . وتحمل من أعباء الإرشاد والتوعية والرعاية ما تعجز الدول العربية متفرقة عن النهوض به .

فالجامعة العربية هي نقطة البدء التي لا بديل منها في هذه المسيرة الطويلة نحو جامعة إسلامية لا سبيل إليها الآن ، مع انشغال كل بلد من بلاد المسلمين بمشكلاته الخاصة ، وانعدام وسائل التواصل بينها باختلاف لغاتها وببعد شعوبها . فالوحدة المهيأة أسبابها الآن هي وحدة البلاد العربية . أما البلاد الإسلامية الأخرى أن تسبق وحدثها خطوات أخرى ، أولها نشر اللغة العربية التي لا تتم جامعة غيرها . إن مقاومة الأخطاء في إدراك حدود العروبة ومقوماتها بالهرب عنها وبمهاجمة العروبة ذاتها . والحزم في أن

تواجه هذه الأخطاء بتصحيحها وبيان زيفها . وسوف تكون العروبة الإسلامية عند ذاك محط آمال المسلمين جميعاً ، ومهوى قلوبهم .

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووزع المشرق العربي ، والمغرب العربي بين إنجلترا وفرنسا ، وكانت ليبيا محتلة بالجيوش الإيطالية . عند ذلك بدأ الإسلاميون يعيدون التفكير في الموقف الذي آل إليه أمر المسلمين والعرب ، ورأوا أن البديل الوحيد من الجامعة الإسلامية هو « الجامعة العربية » . أما دعاة الجامعة العربية ، فقد انقسموا شيعاً فالإسلاميون منهم ظلوا ثابتين على دعوتهم ، وغلاة القوميين من المتأثرين بالقوميين الغربيين ظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى جامعة عربية مجردة من الإسلام ، والبعض منهم ممن تولى المناصب في ظل التقسيم الجديد الخاضع للاستعمار ركنوا إلى الدعوة وسكنوا إلى النظم التي يعيشون في ظلها .

العروبة بطبيعتها وبحكم نشأتها ونموها وازدهارها هي عروبة إسلامية . وقد ساهم في تطورها الحضاري على مدى القرون والأجيال عناصر عربية غير مسلمة . ولكن مساهمتها ظلت في داخل الإطار الإسلامي الذي لم يكن يسمح لأحد بالخروج عليه . ولم تجد هذه العناصر العربية من غير المسلمين غضاظة في أن تساهم في بناء هذه الحضارة في الحدود الإسلامية ، لأن هذه الحدود لم تكن تتعارض مع عقائدهم ، والحريات مكفولة لهم على السواء .

الشخصية العربية هي شخصية عريقة تضرب عروقتها في أعماق التاريخ ، وقد ارتبطت بالإسلام ونمت ليس على إطلاقه فإن الشخصية العربية

موجودة قبل الإسلام وفي الجاهلية ونشأتها سابقة للإسلام وتطورت ونضجت في داخل إطاره . دون أن يكون في ذلك تعارض مع أصول الأديان السماوية الأخرى التي نبتت من المنطقة ذاتها . فالإسلام هو الذي أعطى العروبة شكلها الثابت المحدد التي يلتقي عندها كل العرب . أما غلاة القوميين من المسلمين مع فريق من المسيحيين في الدعوة إلى القومية لا دينية ، فهم واقعون تحت تأثير ما توهموه من أن النهضة الأوروبية الحديثة كانت ثمرة لتجريد الحكم من الصفة الدينية . فإذا جردت من هذه القيم الدينية المسلم بها عند العرب ، فما هي المقومات التي تحل محلها عند العرب . فالماديون منهم سينزعون إلى الماركسية ، وسيشتركون مع الليبراليين في السخرية من القيم الدينية ، فيقع الصراع بينهم وبين المتدينين .

فالمسيحيون الذين يخافون على أمنتهم وسلامتهم وحريتهم في ظل عروبة إسلامية هم أكثر خوفاً وأبعد عن الأمن في عروبة لا دينية . لأن الإسلام وحده هو الضامن لمنع انحراف المسلمين إلى عصبية جهولة عمياء تحطم وتعتدي وتظلم . وأن قوام الديمقراطية التي يتغنى بها أهل هذا العصر ، هو نزول القلة على حكم الكثرة . فلماذا تجد القلة غير المسلمة غضاضة في إقرار الكثرة المسلمة على بناء حياتهم في ظل الإسلام ، وعلى هدى منه<sup>(١)</sup> .

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ، د/محمد حسين ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .



# الدولة

تعرف الدولة من أنها مجموعة دائمة من الأفراد ، يملكون إقليمًا معينًا ، وتضم سلطة منظمة بهدف تمكين الجماعات والأفراد من التمتع بحقوقهم وبالشخصية المعنوية والنظام والاستقلال . والدولة هي الشخص الذي يمثل أمة تقطن أرضًا معينة ، والذي بيده السلطة العامة « السيادة » . وهناك تعريف أوضح من أن الدولة عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلى مجموعة شعب مستقر على إقليم معين حكمًا ومحكومين . بحيث يكون لهذا الشخص سلطة سياسية مجردة ذات « سيادة » . ولوجود الدولة يتعين أن يكون المجتمع السياسي قد وصل في تطوره إلى الحد الذي يسمح بتحقيق أمرين أساسيين :

**أولهما :** أن يكون الاستقرار قد عمق الشعور بالتضامن بين أفراد هذه المجموعة البشرية بحيث يتم انصهارهم في وحدة بشرية لها ذاتيتها المتميزة عن غيرها من الوحدات الأخرى المجاورة .

**ثانيهما :** أن يتطور التنظيم السياسي والاجتماعي للمجموعة البشرية بحيث يقترب قدر الإمكان من الحد الذي يسمح بوجود نظام شبه دائم ومستمر لظاهرة السلطة السياسية .

ووفقًا للمفهوم السابق فإن الدولة ليست إلا جماعة بشرية تكاملت لها خاصيتان رئيسيتان : « رابطة قوية للتضامن ، وتنظيم سياسي قانوني

مكتامل » . كما أن مجرد وجود المجتمع السياسي بما يعنيه على توافر عناصر « الأفراد ، والإقليم ، والسلطة » لا يفيد وجود الدولة ، لأنه لا بد من توافر شرط الإستقلال أو ما يعرف بسيادة الدولة . فإذا كانت الدولة كما ورد في بعض التعريفات السابقة : عبارة عن ذلك الشخص المعنوي الذي يرمز إلى مجموعة شعب مستقر على إقليم معين حكامًا ومحكومين ، بحيث يكون لهذا الشخص المعنوي سلطة سياسية ذات سيادة ، فإنه يكون للدولة الأركان الأساسية الآتية :

### أولاً : الشعب :

وجود السكان أو الشعب هو الشرط الأساسي لوجود الدولة . وليس من الضروري أن يكون شعب الدولة من عدد معين ، فقد يقل العدد حتى يكون بضعة آلاف ، وقد يزيد فيتجاوز مئات الملايين . وأنه ليس من الضروري أن يتكلم شعب الدولة لغة واحدة أو ينتسب إلى قومية واحدة . حيث قد تتباين الأجناس والقوميات التي ينحدر منها شعب الدولة الواحدة .

وفي تعريف الأمة أنها جماعة بشرية لا تقوم فقط على أساس التركيب « البيولوجي » الذي يرتبط بالميلاد والدم والأصل البشري . ولكنها بالإضافة إلى ذلك تركيب أخلاقي اجتماعي ، يرتبط بنمط حياتي معين ، وبمجموعة مشتركة من الأحاسيس النابعة من وحدة الأصل ووحدة البيئة ووحدة التاريخ . وهي تختلف في ذلك عن الدولة في أن الأخيرة هي مجرد وحدة قانونية يكون



لها سلطة سياسية ذات سيادة . أي أن الدولة ليست إلا تنظيم سياسي ، وليست كل أمة دولة .

كما يظهر الاختلاف بين الدولة والأمة في أن الأمة قد تسبق وجود الدولة ، وذلك إذا انقسمت الأمة الواحدة بين عديد من الدول . بمعنى أنه قد توجد أمة واحدة ، ولكن مع ذلك نجدها موزعة بين دول مختلفة . ومثال على ذلك « الأمة العربية » التي تكونت منها دول كثيرة .

### ثانيًا : الإقليم :

يعتبر الإقليم شرط وجود الدولة باعتبار أن الدولة هي الأساس وهي مجموعة من الأفراد تعيش معًا عيشة مستقرة ودائمة ، وهو ما لا يمكن أن يتحقق بغير الإقليم والأرض . كما أن الإقليم هو ركن أساسي من أركان ممارسة الدولة لسيادتها . فالسيادة تبنى على قيام الدولة بإخضاع كل الأشخاص والأشياء الموجودة داخل إقليمها لسيادتها ، وبدون عنصر الإقليم تصبح ممارسة السيادة أمرًا غير ممكن . ومن هنا ، فإن زوال إقليم الدولة يؤدي إلى انقضاء شخصيتها الدولية ، ولكن زيادة الإقليم أو نقصانه لا يؤدي إلى ذات النتيجة . وإذا كانت الدول تختلف عن بعضها من ناحية عدد السكان ، فإنها تختلف أيضًا من ناحية مساحة إقليمها حيث يكبر أو يقل من دولة إلى أخرى .

ويلاحظ أنه لا يقصد بإقليم الدولة الإقليم الأرضي أي سطح الأرض بمعنى اليابسة فقط . وإنما يقصد بذلك سطح الأرض وما تحته من أعماق وما

فوقه من الطبقات الجوية التي تعلو اليابسة . وكذلك البحر الإقليمي أي المياه الساحلية من البحر الملاصقة لشواطئ الدولة ، وما يعلو هذا البحر الإقليمي من طبقات جوية ، وعلى ذلك فإن إقليم الدولة يشمل : « إقليم أرضي ، وإقليم مائي ، وإقليم جوي » وتتلخص في التالي :

### أ- الإقليم الأرضي :

يُتحدد بمساحة معينة من الأرض تحددها حدود معينة قد تكون طبيعية مثل الجبال ، أو الأنهار ، أو البحار ، كما قد تكون حدودًا صناعية . وفي حالات أخرى يكفي بخطوط وهمية كحد فاصل بين دولة وأخرى . ويشمل الإقليم الأرضي للدولة تحت السطح من طبقات لا نهاية لعمقها بكل ما تشتمل عليه هذه الطبقات من شتى مصادر الثروات كالبترول والمعادن والفحم .

### ب- الإقليم المائي :

ويشتمل جميع الأنهار والبحيرات الداخلة في حدوده ، وإذا كان النهر يجري في إقليم أكثر من دولة فإن كل دولة تعتبر مالكة لهذا الجزء من النهر الذي يمر بإقليمها . أما مياه الأنهار المشتركة فإن كل استغلالها وتوزيعها بموجب معاهدات تعقد بين الدول التي تملك هذه الأنهار . كما تمتد ملكية الدولة إلى جزء من البحار العامة الملاصقة لأراضيها ، ويسمى بالبحر الإقليمية . وكانت محدودة في القانون الدولي بثلاثة أميال بحرية تبدأ من شاطئ الدولة ، ثم رفعتها بعض الدول إلى اثني عشر ميلاً .

## ج- الإقليم الجوي :

تمتد ملكية الدولة لإقليمها إلى طبقات الهواء الواقعة فوق هذا السطح وسيادة الدولة تمتد إلى ارتفاع معين من جو إقليمها . وما كان أعلى من هذا القدر المعين من الجو يعتبر حرًا لجميع الدول ، ويطلق عليه « الفضاء الخارجي » .

ومما سبق يمكن القول بأن لإقليم الدولة أهمية فيما يتعلق بممارسة سلطة الدولة في تحديد النطاق الإقليمي الذي يمكن للدولة أن تحدد شعبها وأن تحصر رعاياها الذين يعيشون على أرضها . كما أنها أحد الركائز الأساسية لاستقلال سلطة الدولة ، وهو اختصاص الدولة التشريعي والإداري والقضائي بالنسبة للوطنيين والأجانب والحكومات الأخرى . ووفقاً لمبادئ القانون الدولي العام القائم على تعدد الدول المستقلة ، فإنه لا يجوز لإحدى الدول أن تتدخل في الشؤون والأحداث التي تقع في إقليم دول أخرى ، و إلا اعتبر ذلك بمثابة انتهاك لسيادتها واعتداء على استقلالها .

## ثالثاً : الحكومة :

لا يمكن أن تقوم دولة على أساس وجود مجموعة من الأفراد وإقليم محدد فقط ، بل يلزم وجود سلطة سياسية عامة يخضع لها جميع الأفراد الذين يكونون الجماعة « الشعب » . وتقوم هذه الحكومة بالوظائف التي تلزم لإدارة شؤون الإقليم واستغلال موارده وحماية شعبه من أي اعتداء خارجي يهدد أمنهم واستقرارهم . ويستلزم هذا أن يكون احتكار أدوات القمع أو القوة في يد

الحكومة حتى تتأكد لها السلطة العليا التي لا تتازع . والتي بدونها تقف عاجزة عن فرض الاحترام الواجب لما يصدر عنها من تشريعات وقرارات ، وإلزام الأفراد بطاعتها وتنفيذها على النحو الواجب<sup>(١)</sup> .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص ٢٧١ - ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ، ص ٣٨ - ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص ١٩ و ٤٧ .

## نشأة الدولة

تعددت محاولات تفسير أصل الدولة وكيف نشأت ، وأخذت هذه المحاولات اتجاهات مختلفة . وكان من أهمها « التطور العائلي » الذي يقوم على أساس أن العائلة هي أصل المجتمع . أو بمعنى آخر أن الدولة كانت في أصلها أسرة تطورت باجتماع وارتباط أكثر من عائلة معًا فتكونت عشيرة . ثم تطورت العشيرة بدورها وتكونت القبيلة ثم المدينة حتى وصل التطور إلى الدولة بشكلها الحاضر . وقد تؤدي هذه الفكرة إلى أن روح الانتماء والتضامن التي تجمع بين أفراد الدولة الواحدة تشبه من وجوه عديدة روح الولاء والارتباط في الأسرة ، وتشبه أيضًا إلى حد ما سلطة حاكم الدولة التي تشبه سلطة العائلة<sup>(١)</sup> .

وكان هناك بعض التحفظ في قيام الدولة كتنظيم سياسي إلى الأسرة وإرجاع أساس السلطة العامة في الدولة إلى سلطة رب الأسرة . فسلطة رب الأسرة لها صفة شخصية مرتبطة بشخص رب الأسرة ذاته تزول بزواله أو باستقلال أفراد الأسرة عنه . أما السلطة السياسية في الدولة فإنها سلطة مجردة دائمة ومنفصلة عن أشخاص من يمارسونها .

وأنه حتى وإن بدت نظرية التطور العائلي سليمة في بعض جوانبها ، إلا أنها ليست وحدها المصدر التاريخي لنظام الدولة . فالتطور الإنساني بكل

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر منها ، ص ٢٧١ - ٢٧٩ . القانون الدستوري والأنظمة السياسية ، د/عبد الحميد متولي ، ص ٣٨ - ٤٧ . علم الاجتماع السياسي ، ص ١٩ و ٤٧ .

ما تفاعل فيه من فكر ، وما تحكم فيه من مؤثرات دينية وسياسية واقتصادية ،  
قد شارك جديّة في تطور نظام الدولة<sup>(١)</sup> .

ووفقاً لذلك فإن الدولة تقوم بتنظيم أحوال الجماعة ، وتحقيق الخير  
لهم ، وعلى ذلك يجب أن يكون للدولة محلاً للإعزاز والاحترام . ومن ناحية  
أخرى ، فإن بقاء الدولة واستمرارها يستلزم وجود سلطة تقوم بإدارة وتنظيم  
وحكم الجماعة ، وأن على الأفراد أن يخضعوا تماماً للدولة والسلطة الحاكمة  
فيها حتى لا يتعارض ذلك مع مكانة الدولة وسلطانها .

ونتيجة للتطور التاريخي في نظرية نشأة الدولة من أنها نتيجة تفاعل  
عوامل متعددة أسهمت بعد تطور طويل على مر العصور في إحداث التقارب  
وإيجاد الترابط بين أفراد الجماعات البشرية . ونظراً لأن هذه العوامل كثيرة  
وتتفاوت من جماعة إلى أخرى مثل : « العوامل الدينية ، والسياسية ،  
والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية » . لذا فإنه لا يمكن أن تكون نتيجة  
التفاعل الذي يحدث بينها واحدة في كل الحالات . لأنه من الطبيعي أن تختلف  
الدول عن بعضها نتيجة اختلاف العوامل التي تفاعلت ونشأت عنها الدولة .  
ولذلك فإنه لا غرابة في أن نجد أشكالاً مختلفة للدول وأنظمة الحكم . كما  
يغدو من الطبيعي أن النظام السياسي الذي يصلح لدولة من الدول قد لا يكون  
كذلك بالنسبة لدولة أخرى . وقد برز الاتجاه الذي يقول أنه إلى جانب الدين  
ورابطة الدم ، فإنه يجب اعتبار الوعي السياسي من العوامل التي أسهمت في  
نشأة الدولة . ويعتمد المنطق الذي يبني عليه هذا الاتجاه ، على أن الفرد

---

(١) المفاهيم الحديثة للأنظمة والحياة السياسية ، د/فوزي أبو ذياب ، ص ٦٨ - ٧٠ .

يسعى إلى إشباع حاجات أساسية لذاته . ومن أهم هذه الحاجات التي تحاول إشباعها الأمن والحماية ضد أي خطر أجنبي ، وأيضاً إشباع حاجات وأهداف مادية ومعنوية ، اجتماعية وثقافية ، وكل هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها إلا في ظل الدولة . وكلما زاد حجم الجماعة كلما ظهرت الحاجة إلى تنظيم العلاقات بين الأفراد على شكل قواعد ملزمة . وأصبح لزاماً على مجتمع الدولة أن يلجأ إلى استحداث قواعد قانونية وضعية تعتمد على تفهم الأفراد ووعيهم بطبيعة العلاقات فيما بينهم<sup>(١)</sup> .

ووفقاً للقانون الدولي تنشأ الدولة باكتمال العناصر المكونة لها من إقليم ورعايا وحكومة ، واعتراف بقية المجتمع الدولي بهذه الدولة الجديدة ، وتنشأ على إحدى الصور الآتية :

- ١- قد تنشأ الدولة من عناصر جديدة باستقرار مجموعة من السكان فوق إقليم غير مأهول ، أو إقليم كان مسكون بشعب قليل .
- ٢- قد تنشأ الدولة الجديدة من عناصر قديمة نتيجة تفكك أو انحلال بعض الدول القائمة .
- ٣- قد تنشأ الدولة الجديدة عن طريق انضمام عدة دول إلى بعضها على شكل دولة واحدة .

---

(١) قضايا نظرية في السياسة المقارنة ، د/عبد الغفار رشاد ، ص ٣٩ - ٤٢ .

وإذا توفرت أركان قيام الدولة من : « إقليم ، وشعب ، وحكومة » فإنه يبقى لكي تنشأ الدولة أن تسلم الدول القائمة بوجودها وتقبل معاملتها ، وهذا هو ما يسمى في القانون الدولي : « بالاعتراف » .

وفي مفهوم سيادة الدولة فإنها في حقيقتها لا تعدو أن تكون نوعاً من التنظيم السياسي والقانون للجماعة البشرية ، وهي التي تتولى أمنها وأمن المقيمين عليها ، ومن ثم فهي تحتكر كل أدوات القوة من أدوات القمع مما يمنحها قوة مادية على جانب كبير من الأهمية تضمن قراراتها وأوامرها تنفيذاً جبرياً . لذا فإن سيادة الدولة هي تعبير عما تملكه من سلطات عليا . أو كما يقال فإن السيادة هي السلطة المطلقة غير المحدودة التي تمارسها الدولة على رعاياها ، وعلى جميع المنظمات التي يكونها الرعايا داخل الدولة . ويمكن تلخيص الخصائص المختلفة للسيادة فيما يلي :

## ١ - السيادة المطلقة :

وهي أعلى صفات الدولة ، وإطلاق سيادة الدولة يعني أن لا يكون في داخل الدولة ولا في خارجها هيئة سلطتها أعلى من سلطة الدولة ، فللدولة سلطة على جميع المواطنين ، والصفات الأخرى للسيادة كلها مستمدة من هذه الصفة الرئيسية .

## ٢ - السيادة الشاملة :

ومعنى شمول السيادة أنها تطبق على جميع المواطنين في الدولة ، والاستثناء الوحيد من ذلك هو ما يتمتع به الدبلوماسيون الأجانب المعتمدون



ففي الدولة من حصانات وامتيازات دبلوماسية . والأصل في الاستثناء من سيادة الدولة بالنسبة للدبلوماسيين : « أن دار السفارة تعتبر تابعة أو امتداد لإقليم الدولة التي تمثلها ، وموظفوها يخضعون لسيادة دولتهم » .

### ٣- السيادة غير قابلة للتجزئة :

فالسيادة لا يمكن تجزئتها ، والدولة الواحدة لا توجد فيها إلا سيادة واحدة .

وبمعيار السيادة والدول ناقصة السيادة تتلخص خصائصها في التالي :

#### أولاً : الدولة الكاملة السيادة :

التي تتمتع بكل مظاهر سيادتها الداخلية والخارجية ، بحيث لا تخضع في إدارة شئونها في الداخل والخارج لرقابة أو تبعية .

#### ثانياً : الدولة ناقصة السيادة :

هي التي لا يكون لها مطلق الحرية في ممارسة سيادتها الخارجية أو الداخلية لارتباطها بدولة أخرى ، أو لخضوعها للأمم المتحدة . وتنقسم الدول ناقصة السيادة إلى ثلاث فئات كالتالي :

#### أ- الدولة المحمية :

وهي الدولة التي تضع نفسها تحت سلطة دولة أخرى أقوى منها .

فالحماية نوعان : الحماية الاختيارية ، والحماية القهرية أي الاستعمارية . وفي كلتا الحالتين تفقد الدولة المحمية سيادتها في المجالين الخارجي والداخلي . إذ تتولى الدولة الحامية التمثيل الدبلوماسي لها ، وإبرام المعاهدات والاتفاقات الدولية . وبالنسبة للدفاع عن أمن الدولة المحمية فإن الذي ينهض به هي الدولة الحامية التي لها أيضاً أن تحدد معالم الحكم الداخلي بما يتلاءم والإطار الذي يخدم مصالحها من وراء توليها هذه الحماية . وغالباً ما تنتهي الحماية إما باستقلال الدولة المحمية ، أو بضمها إلى الدول الحامية ، أو بوضعها تحت سلطة المنظمة الدولية .

### ب- الدولة التابعة :

كل دولة تخضع لدولة أخرى تسمى « الدولة التابعة » ، وغالباً يتم حرمان الدولة التابعة من ممارسة سيادتها الخارجية مع احتفاظها بجزء من سيادتها الداخلية . والعلاقات بين التابع والمتبوع لا تخضع لقواعد قانونية ثابتة ، بل تختلف الظروف والملابسات التي أدت إلى قيام التبعية .

### ج- الدولة المشمولة بنظام الانتداب :

هو أن الدولة تحت الانتداب ، تفقد شخصيتها الدولية وسيادتها الخارجية كلها . وهي وإن كانت تحتفظ بكيانها فلا يجري عليها حكم الضم للدولة المنتدبة . ولنظام الانتداب هدفان : أولهما « مثالي » ، وهو مساعدة الشعوب الواقعة تحت الانتداب حتى تصبح أهلاً للاستقلال ، وثانيهما « مادي » وهو إرضاء الأطماع الاستعمارية للدولة التي انتصرت في الحروب العالمية .

## د - الدولة المشمولة بنظام الوصاية :

ونظام الوصاية كنظام الانتداب ينقص من سيادة الدولة . فالدولة تحت الوصاية لا تملك سلطة تصريف شئونها الداخلية بإرادتها المنفردة . كما لا تنفرد بوضع نظامها الدستوري ، ولكنها تملك ذلك تحت إشراف المنظمة الدولية<sup>(١)</sup> .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص ٢٨٨ - ٣٠٠ . النظم السياسية ، د/ثروت بدوي ، ص ٢٣٠ . الحريات العامة ، د/عبد الحميد متولي ، ص ٨٣ .



# قوة الدولة

هناك مقومات لقياس القوة للدولة كبناء تكامل ، وذلك وفقاً لمعايير تحدد مدى قوة تلك الدولة . والقوة تعني قوة أو ضعف دولة ما ضمن المقاييس المقررة لهذا الوصف . وبمعنى آخر مدى الاعتمادات أو المقدرات أو الموارد المتاحة التي يمكن أن تستخدمها الدولة لتحقيق مصالحها وأهدافها الوطنية . والقوة بذاتها يمكن أن تكون قوة رادعة تمنع الاعتداء عليها ، وتصبح مهابة ويصعب الدخول معها في نزاع أو تهديد لها . ولذا فيكون لهذه الدولة المتمتعة بمقومات القوة تأثير إستراتيجي في البيئة الإقليمية والدولية وأن هذه العناصر مجتمعة تعتبر أعمدة التصنيف للقوة تتلخص في التالي :

## ١ - القوة البشرية :

أي عدد السكان لتلك الدولة ، والبناء الاجتماعي لهم ، وهل هؤلاء السكان متعلمون يستطيعون بعلمهم خدمة المصالح الوطنية .

## ٢ - العنصر المكاني الجغرافي :

ويعني أين تقع هذه الدولة هل هي دولة داخلية ولو كانت واسعة الأرجاء أم هي دولة ذات صبغة إستراتيجية تقع على مفاصل هامة من العالم حتى ولو صغرت مساحتها . ثم مناخ هذه الدولة هل هو في المناطق الحارة الذي قد يؤثر على الأداء البشري أم في المناطق المتجمدة بالبرودة حيث يؤثر أيضاً على أداء البشر ويحد من نشاطهم ، ولذا تبرز أهمية المناخ المعتدل .

ثم أن المساحة الواسعة للدولة يعطيها بعدًا إستراتيجيًا فإذا كانت الدولة واسعة الأرجاء حتى لو سقط جزء منها فستبقى تقاوم بينما لو كانت مساحتها صغيرة فيسهل قضمها أو ابتلاعها .

### ٣- العنصر الاقتصادي :

وهذا يعني ما هي مقومات الدولة الاقتصادية وما هي ثرواتها الطبيعية من معادن وطاقات وثروات زراعية ، وتمتعها بميزان تجاري وبقوة شرائية .

### ٤- العنصر التاريخي :

وهذا يعني هل الدولة ومجتمعها يتمتعون بتاريخ مجيد لها عراقتها وحضارتها وسجلها الزمني الموهل في القدم مثل « الأمة العربية » . ثم هل يتمتع هذا الشعب بمعنويات عالية واعتزاز بالذات الحضارية والنفسية . ثم هل هذا المجتمع مترابط لا تفرقه أهداف ومتجاسر ، وهل هناك أعراف تنظم حياتهم وأهدافهم .

### ٥- العنصر التنظيمي الإداري :

وهذا يعني نظام الدولة والحكم .

### ٦- العنصر العسكري :

وهذا يعني القوات المسلحة للدولة ما هي طبيعة هذه القوات وحجمها والوسائل المستخدمة معها ومستوى تدريبها<sup>(١)</sup> .

---

(١) مدخل إلى الثقافة والتربية والوطنية ، محمد عليان عليجات ، ص ٢٥ - ٢٧ .

إن المقصود بكل من القوة والقدرة في نظرية العلاقات الدولية باعتبارها علاقات « قوى » والقوة في المجال الدولي هي بالدرجة الأولى علاقات اجتماعية ، ولا تعني في الواقع أكثر من علاقات الدول بما أوتيت من قوى . ومن ثم علاقات ما بين إرادات تستهدف بقدرتها غايات اجتماعية أو غايات تتمثل في تحقيق المصلحة القومية .

وتحليل القوة القومية في العلاقات الدولية يجب أن تظل بمنأى من التعرض لطبيعتها الأخلاقية ، وما إذا كانت تستخدم في الخير أم في الشر . وكذلك يجب التمييز بين الكيفية التي تجرى بها ممارسة القوى القومية من جانب ، وبين استخدام العنف كظاهرة من مظاهر الممارسة من جانب آخر . فالقوة القومية عناصرها كثيرة وأساليب استخدامها متنوعة ، وبالتالي فإن الالتجاء إلى العنف ليس إلا واحداً فقط من هذه الأساليب . وتأسيساً على ذلك يجب عدم الخلط بين القوة القومية والعنف واعتبارها مترادفين ، فأحياناً لا يكون استخدام العنف هو أنجح أساليب ممارسة القوة القومية . حيث أن القوة القومية بطبيعتها متغيرة أي أن التغيير في العناصر التي تصنعها لا بد وأن يتبعه تغيرات متشابهة في حجم هذه القوة وفعاليتها . وقد يتبادر إلى الذهن أن الدول ذات الرقعة الجغرافية الممتدة هي الدول القوية ، وكذلك الحال بالنسبة للكثافة السكانية أو الثراء أو التقدم الصناعي أو ضخامة الجيش . ولكن التركيز على أي من هذه العوامل بمفرده لا يوضح القوة الحقيقية للدولة .

وبالتالي فإنه يمكن تعريف القوة القومية بأنها المقدرة على التأثير في سلوك الدول الأخرى بالكيفية التي تخدم أغراض الدول المملوكة لها . وبدون هذا فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية ولكنها ليست قوية . كما أن الجانب الأكبر من قوة الدولة لا يعتمد فقط على قدرتها على التأثير في سلوك الدول الأخرى ، ولكنه يرتبط كذلك بكيفية تقييم الدولة لهذه القوة وأيضًا بتقييم الدول الأخرى لها . وكذلك فإنه هناك اعتبارًا آخر وهو أن توقع أي زيادة مقبلة في قوة الدولة قد يكون من العوامل المساعدة على قدم القوة الحالية لهذه الدولة .

هناك بعض التحليلات التي تحاول إيجاد حقيقة نظرية تصور لها لعوامل قوة الدولة في المجال الدولي . لقد دأب الباحثون في المجال الدولي في قوائم تختلف في العدد والتسميات في ضوء معايير معينة لاقتراح صيغة نظرية . وهناك العوامل التي قد تشكل قوة الدولة ومكانها من سلم القوى في المجال الدولي ، وتتضمن ثمانية عوامل هي : « الجغرافية ، الموارد الطبيعية ، المقدرة على الصناعة ، الاستعداد الحربي ، السكان ، الخصائص القومية ، المعنويات القومية ، المهارة الدبلوماسية » . والبعض يرد قوة الدولة إلى مجموعة عوامل هي : « الجغرافية ، الأوضاع السكانية ، القوى الاقتصادية ، العوامل المالية ، الشعور القومي ، ودور رجال الدولة في تشكيل سياستها الخارجية » .



وباستقراء التاريخ نلاحظ أن عوامل القوة ليست ثابتة زماناً ومكاناً ،  
فواقع الحياة الدولية يؤكد أن عوامل القوة تختلف من عصر إلى عصر . ومن  
ذلك أن أسباب القوة في زمن السلم ليست هي نفس أسباب القوة في زمن  
الحرب بل إن نفس العامل قد تتفاوت أهميته من عصر إلى عصر .  
وقد أثار مسألة هدف عمل الدولة في المجال الدولي اتجاهين : اتجاهًا  
إنسانيًا يرتبط بفكرة الخير « خير الجماعة الدولية - خير البشرية » واتجاهًا  
ماديًا بفكرة القوة المادية والذي ينتهي إليها « مفهوم المصلحة القومية » .

فقد تكون ذات طبيعة مطلقة ، فقد تكون ذات تأثير معين في  
وقت ما ، ولكنها في وقت آخر وفي ظل علاقات قوى مختلفة قد تؤثر على  
نحو مختلف سواء بالزيادة أو النقص . ونظرية أن بعض مكونات القوة  
القومية تتمتع بطبيعة دائمة لا ينصرف إليها التغيير . وهذه النظرية غير  
واقعية مع التطورات التكنولوجية التي تجعل من فكرة وجود عوامل ثابتة في  
قوة الدولة أمر غير عملي . ويجب عدم التركيز على عامل مفرد في عملية  
التقييم بل الأخذ بعين الاعتبار كل العناصر التي تؤثر في قوة الدولة<sup>(١)</sup> .

---

(١) علم السياسة ، د/محمد نصر مهنا ، ص ٤٦٥ - ٤٧٤ .